مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

ما ظاهره التعارض بين الأحاديث النبوية والآيات القرآنية (دراسة تحليلية)

د. محمد طه علاّم
مدرس الدراسات الإسلامية – قسم اللغة العربية
كلية الآداب– جامعة بور سعيد

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين، سيدنا محمد النبي العربي، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الحديث النبوي الشريف يعد المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، ومن ثم فهو تبيان وتوضيح لما ورد في القرآن من عقائد وتشريع وأحكام؛ وذلك لأن منبعهما أو مصدرهما واحد؛ إذ إن مرجعهما إلى الله تعالى فالقرآن كلام الله، والأحاديث بوحي منه سبحانه، فهو القائل مخبرًا عن رسوله ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾[1].

بيد أنه على الرغم من أن وجود المطابقة بين كلام المولى ﷻ وحديث رسوله الصادق ﷺ هو الأصل العام إلا أنه وردت بعض الأحاديث النبوية يوهم ظاهرها التعارض والمخالفة أو عدم المطابقة بينها وبين بعض الآيات القرآنية مما دفعني إلى دراسة تلك الأحاديث دراسة متأنية في محاولة لكشف النقاب عنها، وبيان بعض أسرارها ومكنوناتها، والوقوف على أوجه الجمع والتوفيق بينها وبين الآيات القرآنية، وتبيان ما تحتمله من تأويلات ومدلولات ينتفي بها ذلك الإشكال أو التعارض.

وهذا الموضوع على ما يبدو فيه من صعاب إلا أنني بعون من الله تعالى أردت خوض غمار البحث فيه، وذلك لما يتسم به من جدة، وكذا ما فيه من خدمة الإسلام والمسلمين ودحض مزاعم المغرضين وسد ذرائع الحاقدين من أعداء الإسلام ودرء محاولاتهم البغيضة لتشويه صورة الدين الإسلامي الحنيف نتيجة للفهم السطحي الخاطئ أو القاصر من جهة أخرى.

وقد كان جل اهتمامي بتلك الأحاديث التي يبدو في ظاهرها التعارض واضحاً مع بعض الآيات القرآنية؛ حيث بلغت أربعة عشر حديثًا، وانصب جهدي في اختيار العناوين الملائمة لمواضع الإشكال أو التعارض مبتدئًا بالأهم منها، فجاءت على النحو التالي:

١- القول في سماع الأموات كلام الأحياء. ٢- ورود المسلم النار. ٣- حديث النفس بين المحاسبة والعفو عنه. ٤- القول في مؤاخذة الإنسان بذنب غيره. ٥- القول في

---

[1] سورة النجم ، الآيات [٣، ٤، ٥].

صنيع الرسول ﷺ مع عبد الله بن أبي. ٦- القول في المراد من السعي إلى الصلاة. ٧- القول في أسباب دخول الجنة. ٨- أجل المرء بين الثبوت والامتداد. ٩- القول في سؤال أهل الكتاب. ١٠- القول في أفضلية الأمم. ١١- القول في أيّ النساء أفضل. ١٢- الريح والرياح بين الرحمة والعذاب. ١٣- القول في عصمة الله لرسوله ﷺ من الناس. ١٤- القول في التحدث بالنعمة أو إخفائها.

والله أسأل أن تحقق هذه الدراسة ما أصبو إليه، فإن وفقت فبفضل من الله ﷻ وإلا فحسبي أني قد اجتهدت، ولله الحمد في الأولى والآخرة.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[1]

القول في سماع الأموات كلام الأحياء

قال تعالى:﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[2] وقوله سبحانه:﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾[3] وقال النبي ﷺ لأصحابه عن قتلى غزوة بدر من المشركين:« إِنَّهُمْ لَيَسْمَعُونَ مَا أَقُولُ الآنَ»[4] وظاهر هذا الحديث يوهم بالتعارض مع قول الله سبحانه وتعالى، ومحله أن الرسول ﷺ يؤكد لأصحابه سماع الموتى ما يقوله على حين آن الآيتين الكريمتين تنفيان قدرته على إسماعهم ما يقول من كلام بما يفيد تحقيق عدم السماع.

---

[1] سورة هود ، الآية [٨٨].

[2] سورة النمل، الآية [٨٠] .

[3] سورة فاطر، الآية [٢٢] .

[4] أخرجه البخاري في صحيحه ١٤٦٢/٤ رقم [٣٧٥٩] ، ومسلم ٦٤٣/٢ رقم [٩٣٢] .

بيد أنه يمكن التوفيق أو الجمع بين قول الله تعالى وبين قول رسوله ﷺ من عدة وجوه[1]:

الأول: أن معنى قوله تعالى:﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ وقوله سبحانه:﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ هو: إنك لا تسمع الكفار الذين أمات الله قلوبهم إسماع هدى وانتفاع؛ لأن الله كتب عليهم الشقاء في سابق علمه، فختم على قلوبهم وعلى سمعهم، وجعل على أبصارهم الغشاوة وعلى قلوبهم الأكنة وفي آذانهم الوقر، فلا يسمعون لحق سماع اهتداء وانتفاع.

ومن القرائن القرآنية الدالة على أن المراد هو تشبيه الكفار بالموتى في عدم سماعهم كلام النبي ﷺ أو استجابتهم لدعوته وما أُنزل عليه من الوحي، وقولهم: قلوبنا غلف أنه ﷺ قال بعد ذلك:﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾[2] فمقابلته جل وعلا الإسماع المنفي للموتى بالإسماع المثبت لمن يؤمن بآياته دليل واضح على أن المراد بالموت في الآية موت الكفر والشقاء لا موت مفارقة الأرواح للأبدان، ولو كان المراد بالموت مفارقة الروح للبدن لكان قابله بما يناسبه، كأن يقال: إن تسمع إلا مَنْ لم يمت، أي: يفارق روحه بدنه.

---

[1] انظر تفسير ابن كثير٦/٥٤٣، ومعالم التنزيل للبغوي ٦/٤١٨، ومدارك التنزيل للنسفي٣/٢٧٢، ومفاتيح الغيب للرازي ٢٦/١٧، والبحر المحيط لأبي حيان ٧/٢٩٥، وأضواء البيان للشنقيطي٦/١٢٤، والنكت والعيون للماوردي٤/٤٦٩، والمحرر الوجيز لابن عطية٤/٥٠١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي٨/٣٥٩، ومعارج القبول شرح سلم الوصول إلى علم الأصول للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي٢/٧١٦ تحقيق:عمر بن محمود، دار القيم- الدمام، ط١ ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية لأبي عبد الله شمس الدين بن محمد الأفغاني٢/٨٨١ دار الصميعي، ط١ ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، والروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة لأبي عبد الله محمد ابن القيم الجوزية ص٤٢ وما بعدها، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، وشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم ص١٠٤ تحقيق: محمد بدر النعساني، دار الفكر- بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، وفيض القدير٢/٣٩٨، وشرح صحيح البخاري لابن بطال٣/٣٢٠ و ٣/٣٥٨.

[2] سورة النمل، الآية [٨١] .

وهذه القرينة القرآنية تدل دلالة واضحة على أن المراد بالموتى هنا الكفار الأشقياء الذين لا يسمعون الحق سماع هدى وقبول، واستقراء القرآن الكريم يدل على هذا المعنى؛ كقوله تعالى:﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[1] فقد أجمع أهل العلم على أن المراد بالموتى الكفار، والدليل مقابلة الموتى في قوله سبحانه:﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ بالذين يسمعون في قوله ﷻ:﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ ﴾ ولو كان المراد بالموتى من فارقت أرواحهم أبدانهم لقابل الموتى بما يناسبهم، كأن يقال: إنما يستجيب الأحياء، أي الذين لم تفارق أرواحهم أبدانهم.

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى:﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2] فقوله سبحانه:﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ أي: كافرا فأحييناه بالإيمان والهدى، وهذا لا نزاع فيه، وفيه إطلاق الموت وإرادة الكفر بلا خلاف.

ومنه أيضا قوله تعالى:﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ ﴾[3]أي: لا يستوي المؤمنون والكافرون.

ولعل من أوضح الأدلة على هذا المعنى أن قول الله تعالى:﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ وقوله سبحانه:﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ وما في معناهما من الآيات إنما كانت تسلية للرسول ﷺ وتسرية عنه؛ لأنه كان يحزنه كفرهم وعنادهم وعدم إيمانهم

---

[1] سورة الأنعام، الآية [٣٦] .

[2] سورة الأنعام، الآية [١٢٢] .

[3] سورة فاطر، الآية [٢٢] .

فأنزل الله آيات كثيرة بيَّن له فيها أنه لا قدرة له على هدى من أضله الله، فإن الهداية والإضلال بيده سبحانه وتعالى وحده، وأوضح له أنه مجرد نذير فقال:﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾[1]، وقد أدى ما عليه فأنذرهم على أكمل الوجوه وأبلغها، وأن هداهم وإضلالهم بيد خالقهم، ومن تلك الآيات قوله:﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾[2] وقوله سبحانه:﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾[3] وقوله ﷺ: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[5] ومن الآيات الدالة على التسلية والتسرية عنه ﷺ قوله تعالى:﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ وقوله سبحانه:﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ أي لا تسمع من أضله الله إسماع هدي وقبول، وقوله ﷺ:﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾[6] وقوله تعالى:﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[7] فلو كان معنى (الموتى) في الآيتين اللتين نحن بصددهما وما شابههما الموتى الذين ماتوا بالفعل وفارقت أرواحهم أبدانهم لما كان في ذلك تسلية له ﷺ ولا تسرية عنه.

---

[1] سورة فاطر، الآية [٢٣] .

[2] سورة الأنعام، الآية [٣٣] .

[3] سورة الحجر، الآية [٩٧] .

(٤) سورة الكهف، الآية [٦] .

[5] سورة الشعراء، الآية [٣] .

[6] سورة النحل، الآية [٣٧] .

[7] سورة القصص، الآية [٥٦] .

الثاني: إن المراد بقوله تعالى:﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ وقوله سبحانه:﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ نفي لاستطاعة الرسول ﷺ أن يُسمعهم وليس ذلك بمحال في قدرة الله ﷻ أن يَسْمَعَهُمْ كما أسمع أهل القليب تبكيته لهم بقوله ﷺ:«هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟»[1] وهذا إذا حمل النفي على مطلق السماع بالكلية، ويكون المعنى: إنك لا تسمع الموتى بطاقتك وقدرتك، ولكن الله وحده هو القادر على إسماعك لهم؛ وذلك نظير قوله:﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ﴾ ؛ وذلك لأن التوفيق والهداية بيد الله وحده دون سواه، فنفى عن نبيه أن يكون قادرًا على أن يسمع الموتى إلا بمشيئته، كما نفى أن يكون قادرًا على هداية الضالين إلا بمشيئته، وإنما أنت نذير، فبلغ ما أرسلت به.

الثالث: أن المراد بالموتى هم الذين ماتوا بالفعل، وأن المراد بالسماع المنفي في قوله تعالى:﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ سماع خصوص الاستجابة أو خصوص السماع المعتاد الذي ينتفعون به، لأنهم قد انقطعت عنهم الأعمال، وخرجوا من دار العمل إلى دار الجزاء، فلا ينفعهم دعاؤك إياهم إلى الإيمان بالله وطاعته، فكذلك هؤلاء الذين كتب عليهم ربك أنهم لا يؤمنون، فإن هذا مثل ضرب للكفار الذين كانوا يسمعون من النبي ﷺ كلام الله تعالى وهو يتلوه عليهم، ولكن ليس ذلك بسماع استجابة ولا قبول بفقه واتباع، كقوله:﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾[2] فهكذا الموتى الذين ضرب بهم المثل لا يجب أن ينفى عنهم مطلق السماع أو جميع أنواع السماع، كما لم يُنْفَ ذلك عن الكفار، وإنما نفى عنهم سماع الاستجابة، كما يدل عليه قوله ﷺ في حديث القليب: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يجيبوا»[3] وبهذا يتضح تشبيه الكفار بهم، فإن الكفار كانوا يسمعون كلام النبي ﷺ

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ١٤٧٦/٤ رقم [٣٨٠٢] ، ومسلم ٢٢٠٢/٤ رقم [٢٨٧٣] .

[2] سورة البقرة، الآية [١٧١] .

[3] أخرجه أحمد في مسنده٢٦/١ رقم [١٨٢]من حديث عمر بن الخطاب و ٢٦٣/٣ رقم [١٣٧٩٩] من حديث أنس بن مالك.

ويسمعون منه كلام الله ﷻ وهو يتلوه عليهم ولكن ليس سماع قبول أو استجابة، ولهذا أثبت الله هذا السماع الظاهر في قوله تعالى:﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾[1] ولو كان الكفار لم يسمعوا أي شيء مطلقًا لا سماع استجابة ولا غيره، لم يكن القرآن حجة عليهم، ولم يكن الرسول ﷺ بلغهم؛ لأنهم ما سمعوه منه، وقد دل على ذلك آيات من كتاب الله ﷻ جاء فيها التصريح بالبكم والصم والعمى مسندًا إلى قوم يتكلمون ويسمعون ويبصرون، والمراد بصممهم هو صممهم عن سماع ما ينفعهم دون غيره، وكذلك في البصر والكلام، وذلك كقوله تعالى:﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾[2] حيث وصفهم بالصمم والبكم مع شدة فصاحتهم وحلاوة ألسنتهم كما صرح بذلك في قوله سبحانه وتعالى:﴿ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾[3] أي: لفصاحتهم، وقوله ﷻ:﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾[4] فهؤلاء الذين إن يقولوا تسمع لقولهم، وإذا ذهب الخوف سلقوا المسلمين بألسنة حداد هم الذين قال الله ﷻ فيهم:﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ وما ذلك إلا أن صممهم وبكمهم وعماهم بالنسبة إلى شيء خاص، وهو ما ينتفع به من الحق، فهذا وحده هو الذي صموا عنه فلم يسمعوه، وبكموا عنه فلم ينطقوا به، وعموا عنه فلم يروه مع أنهم يسمعون غيره ويبصرونه وينطقون به، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ ﴾[5] والعرب تطلق الصمم

---

[1] سورة الجاثية، الآية [٨] .

[2] سورة البقرة، الآية [١٨] .

[3] سورة المنافقون، الآية [٤] .

[4] سورة الأحزاب، الآية [١٩] .

[5] سورة الأحقاف، الآية [٢٦] .

على السماع الذي لا فائدة فيه[1]. وهذا الوجه هو ما جزم به شيخ الإسلام ابن تيمية واقتصر عليه[2].

ولعل ما يقتضي الدليل رجحانه هو أن الموتى في قبورهم يسمعون كلام من يكلمهم، وهذا الدليل مبني على ركيزتين:

الأولى: أن سماع الموتى ثبت عن النبي ﷺ في أحاديث متعددة ثبوتا لا مطعن فيه، وأنه عليه الصلاة والسلام لم يذكر أن ذلك خاص بإنسان ولا بوقت، فمن الأحاديث الدالة على ثبوت سماع الموتى ما ورد في الصحيحين[3] عن أنس ابن مالك ﷺ «أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثا، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم، فقال: يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَيَا شَيْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، وَيَا عُتْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، وَيَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَ تُنَادِي قَوْمًا قَدْ جَيَّفُوا ؟ فَقَالَ: مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا، ثم أمر بهم فسحبوا، فألقوا في قليب بدر».

فهذا الحديث الصحيح أقسم فيه النبي ﷺ على أن الأحياء الحاضرين ليسوا بأسمع لما يقوله ﷺ من أولئك الموتى، وهو نص صريح في سماع الموتى، ولم يذكر في ذلك تخصيصا، وقد أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما[4] عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ وقف على قليب بدر فقال:« هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟» وقال:«إِنَّهُمْ لَيَسْمَعُونَ الآن مَا أَقُول» فذكر ذلك لعائشة رضي الله عنها، فقالت: وَهِمَ ابن عمر، إنما قال رسول الله ﷺ:«إِنَّهُمُ الآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ حَقٌّ، ثُمَّ قَرَأَتْ :﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾».

وإنكار عائشة رضي الله عنها لرواية ابن عمر بما فهمت من القرآن مردود ومدفوع بثلاثة أمور:

---

[1] انظر اللسان، مادة (ص.م.م)، والكليات لأبي البقاء ص٥٤٣.

[2] انظر الفتاوى الكبرى ٣/٦٠.

[3] انظر صحيح البخاري ١/٤٦٢ رقم [١٣٠٤] ، ومسلم ٤/٢٢٠٣ رقم [٢٨٧٤].

[4] انظر صحيح البخاري ٤/١٤٦٢ رقم [٣٧٥٩] ، ومسلم ٢/٦٤٣ رقم [٩٣٢].

الأول: أن رواية العدل لا ترد بالتأويل، أي أن تأول عائشة بعض آيات القرآن الكريم لا تُرَدّ به روايات الصحابة العدول الصريحة عنه ﷺ، وأهل العلم بالحديث قد اتفقوا على صحة ما رواه أنس وابن عمر.

الثاني: أن عائشة رضي الله عنها لما أنكرت رواية ابن عمر عن النبي ﷺ إنما أنكرت السماع للموتى ونفته عنهم، وأثبتت لهم العلم، ومعلوم أن من ثبت له العلم صح منه السماع .

الثالث: أنه جاء عنها مما يقتضي رجوعها عن تأويلها إلى الروايات الصحيحة التي تؤكد ثبوت السماع للموتى.

ومن الأحاديث الدالة على سماع الموتى ما جاء في الصحيحين[1] عن أنس ﷺ قال: قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا» ففيه تصريح النبي ﷺ بسماع الميت في قبره قرع النعال، وهو نص صحيح صريح في سماع الموتى، ولم يذكر فيه تخصيصا، وظاهره العموم في كل من دُفِن وتولى عنه قومه.

ومن الأحاديث الدالة أيضا على عموم سماع الموتى ما رواه مسلم في صحيحه[2] من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت:« كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كُلَّمَا كَانَ لَيْلَتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَخْرُجُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى الْبَقِيعِ، فَيَقُولُ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَأَتَاكُمْ مَا تُوعَدُونَ غَدًا مُؤَجَّلُونَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاحِقُونَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأَهْلِ بَقِيعِ الْغَرْقَدِ[3]»، وفي رواية في صحيح مسلم[4]عنها أيضا أنها قالت:« كَيْفَ أَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: قُولِي: السَّلامُ عَلَيكم أهل الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، يَرْحَمُ اللَّهُ

---

[1] انظر صحيح البخاري ١/٤٤٨ رقم [١٢٧٣] ، ومسلم ٤/٢٢٠٠ رقم [٢٨٧٠].

[2] انظر صحيح مسلم ٢/٦٦٩ رقم [٩٧٤].

[3] البَقِيعُ: المَوْضِعُ فِيهِ أُرُومُ الشَّجَرِ مِنْ ضُرُوبِ شَتَّى، وبه سُمِّيَ بَقِيعُ الغَرْقَدِ، وقَدْ وَرَدَ في الحَدِيثِ ، وهي مَقْبَرَةٌ مَشْهُورَةٌ بالمَدِينَةِ؛ لأَنَّهُ كانَ مَنْبَتَهُ، والغَرْقَدُ : شَجَرٌ لَهُ شَوْكٌ، فَذَهَبَ وبَقِيَ الاسْمُ لازِماً لِلْمَوْضِعِ.
انظر لسان العرب لابن منظور وتاج العروس للزبيدي، مادة (ب.ق.ع).

[4] انظر صحيح مسلم ٢/٦٦٩ رقم [٩٧٤].

الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاحِقُونَ، نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ».

ولعل خطاب النبي ﷺ لأهل القبور بقوله:« السَّلامُ عَلَيكم» وقوله:« وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاحِقُونَ» ونحو ذلك يدل دلالة واضحة على أنهم يسمعون سلامه وكلامه؛ لأنهم لو كانوا لا يسمعون لكان خطابه لهم من جنس خطاب المعدوم والجماد، وهذا بلا شك ليس من العقلاء، ولذلك فمن المستبعد جدا صدوره منه ﷺ.

الركيزة الثانية: أن الأحاديث الصحيحة عن الرسول ﷺ في سماع الموتى وهي كثيرة لم يثبت في الكتاب ولا في السنة شيء يخالفها، وفهم عائشة رضي الله عنها بعض الآيات على معنى يخالف الأحاديث المذكورة لا ينبغي الاستناد إليه، أو الاعتماد عليه؛ لأن غيره- أي غير ما فهمت عائشة- في معنى الآيات أولى بالصواب منه، فلا ترد النصوص الصحيحة عن النبي ﷺ بتأول بعض الصحابة بعض الآيات، لأنه لا سبيل إلى رد رواية الثقة إلا بنص مثله يدل على نسخه أو تخصيصه أو استحالته، ومن ثم فإنه إذا ورد عنه ﷺ ما يدل على ثبوت سماع الموتى من غير معارض صريح علم بذلك أن هذا الدليل يقتضي رجحانه، فقد روى أبو داود في سننه[1] عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:« مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلاَّ رَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلاَمَ»، وثبت أيضا في الصحيح أن الميت في قبره يستأنس بالمشيعين لجنازته بعد دفنه، وبوجود الأحياء عنده، ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه[2] من حديث عمرو بن العاص ﷺ وهو في سياق الموت، حيث قال:« فَإِذَا مِتُّ فَلاَ تَصْحَبَنِّي نَائِحَةٌ، وَلاَ نَارٌ فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي فَسُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ سَنًّا، فَإِذَا فَرَغْتُمْ مِنْ قَبْرِي، فَامْكُثُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا، فَإِنِّي أَسْتَأْنِسُ بِكُمْ حَتَّى أَعْلَمَ مَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي» فدل على أن الميت يستأنس بالحاضرين عند قبره ويُسَرّ بهم.

ومن المعلوم أن هذا الحديث له حكم الرفع؛ لأن استئناس المقبور بوجود الأحياء عند قبره لا مجال للرأي فيه، وقد شرع النبي ﷺ لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا

---

[1] انظر سنن أبي داود ٦٢٢/١ رقم [٢٠٤١] وكذلك مسند أحمد٥٢٧/٢ رقم [١٠٨٢٧] والحديث حسنه الشيخ الألباني.

[2] انظر صحيح مسلم ١١٢/١ رقم [١٢١] ، وكذلك السنن الكبرى للبيهقي٥٦/٤ رقم [٧٣١٨].

عليهم سلام من يخاطبونه، فيقولون:« السَّلامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ» وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل، ولولا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب المعدوم والجماد، والسلف مجمعون على ذلك، وقد تواترت الآثار عنهم أن الميت يعرف زيارة الحي له ويستبشر به.

وذكر ابن القيم[1] آثارًا تقتضي سماع الموتى ومعرفتهم لمن يزورهم، وذكر في ذلك مرائي كثيرة جدا، وصرح بأن هذه المرائي وإن لم تصلح بمجردها لإثبات مثل ذلك، فهي على كثرتها قد تواطأت على هذا المعنى، فإذا تواطأت رؤيا المؤمنين على شيء كان كتواطئ روايتهم له،.وأضاف أنه يكفي في هذا تسمية المسلِّم عليهم زائرا، ولولا أنهم يشعرون لما صح تسميته زائرا، فإن المزور إن لم يعلم بزيارة مَنْ زاره لم يصح أن يقال: زاره، وهذا هو المعقول من الزيارة عند جميع الأمم، وكذلك السلام عليهم أيضا، فإن السلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلِّم محال، وقد علم النبي ﷺ أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا:« السَّلامُ عَلَيكم أهل الدِّيَارِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ...» وهذا السلام والخطاب والنداء لمن يسمع، ويخاطب، ويعقل، ويرد، وإن لم يسمع المسلِّم الرد، ويدل على هذا أيضا ما جرى عليه عمل الناس قديما وإلى الآن من تلقين الميت في قبره، ولولا أن الميت يسمع ذلك وينتفع به لم يكن فيه فائدة، وكان عبثا، وقد سئل عنه الإمام أحمد رحمه الله فاستحسنه، واحتج عليه بالعمل، ولا شك أن اتصال العمل به في سائر الأمصار والأعصار من غير إنكار كافٍ في العمل به، وقد روى أبو داود في سننه عن عثمان ﷺ أنه قال:« كَانَ ﷺ إذا فرغ من دفن الْمَيِّت وقف عَلَيْهِ، وَقَالَ: اسْتَغْفِرُوا لأخيكم، واسألوا لَهُ التثبيت؛ فَإِنَّهُ الآن يسْأل[2]» فإذا كان يسمع سؤال السائل فإنه يسمع تلقين الملقن أيضا.

ومن جزم باستحباب التلقين بعد الدفن الإمام النووي وغيره[3]، قال النووي:" ويستحب أن يلقن الميت بعد الدفن، فيقال: يا عبد الله ابن أمة الله، اذكر ما خرجت عليه من الدنيا، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأن الجنة حق، وأن النار

---

[1] انظر الروح ص٥.

[2] سنن أبي داود ٢/٢٣٤ رقم [٣٢٢١] وصححه الألباني.

[3] انظر فقه السنة للشيخ سيد سابق ١/٥٤٧.

حق، وأن البعث حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأنك رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا، وبالقرآن إماما، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخوانا"[1].

وحقيقة التلقين بعد الدفن تتضمن أمرين، أحدهما: سماع الميت كلام ملقنه بعد دفنه، والثاني: انتفاعه بذلك التلقين، وكلاهما ثابت في الجملة، أما سماعه لكلام الملقن فيشهد له سماعه لقرع نعل الملقن الثابت في الصحيحين، وليس سماع كلامه بأبعد من سماع قرع نعله، وأما انتفاعه بكلام الملقن فيشهد له انتفاعه بدعاء الحي وقت السؤال في قوله ﷺ:« اسْتَغْفِرُوا لأخيكم، واسألوا لَهُ التثبيت؛ فَإِنَّهُ الآن يسأل» فإذا كان وقت السؤال ينتفع بكلام الحي الذي هو دعاؤه له فإن ذلك يشهد لانتفاعه بكلام الحي الذي هو تلقينه إياه وإرشاده إلى جواب الملكين، وفي ذلك كله دليل على سماع الميت كلام الحي.

ولعل ما يدعم القول بأن الميت يسمع ويعقل ما ذكره ابن القيم من تنفيذ عوف بن مالك لوصية الصعب بن جثامة له في المنام بعد موته، وهي إعطاء عشرة دنانير ليهودي من تركته كانت ديناً له عليه، ومات قبل قضائها، وذلك لما علم صدق قوله بالقرائن التي أخبره بها، وكذلك تنفيذ خالد وأبي بكر الصديق رضي الله عنهما وصية ثابت بن قيس بن شماس ﷺ، وهي قضاء دين عليه لرجل في المنام وعتق بعض رقيقه[2]، فإذا كانت وصية الميت بعد موته قد نفذها في بعض الصور أصحاب رسول الله ﷺ فإن ذلك يدل على أنه يدرك ويعقل ويسمع، وأنه إذا عرف مثل هذه الجزئيات وتفاصيلها فإن معرفته بزيارة الحي وسلامه عليه ودعائه له أولى وأحرى.

وقيل إنه إذا جاز أن يكون المكلَّف بعد موته معروضاً على النار غدوا وعشيا جاز أن يسمع الكلام ويمنع الجواب؛ لأن اللذة والعذاب تجيء بالإحساس، فإذا كان كذلك وجب اعتقاد رد الحياة في تلك الأجساد وسماعهم للكلام، والعقل لا يدفع هذا: فإذا صح رد الحياة إلى أجسامهم مع ما هم عليه من نقص البنية وتقطع الأوصال صح أن يوجد فيهم سماع الكلام والعجز عن رد الجواب، وقد ذكر البخاري في غزوة بدر بعد قوله ﷺ:« مَا

---

[1] روضة الطالبين ١/٦٥٤.

[2] انظر الروح ص٢١،١٤.

أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ» أن قتادة قال: أحياهم الله حتى أسمعهم؛ توبيخاً ونقمة وحسرة وندما، وعلى تأويل قتادة فقهاء الأئمة وجماعة أهل السنة[1].

وقيل إن الموتى يسمعون كلام الأحياء ويتكلمون فيسألون عنهم منْ أتاهم ممن مات بعدهم، ويعرفون أقوالهم وأفعالهم ولكن الأحياء لا يستطيعون سماعهم، فعن أبي هريرة ﷺ أنه قال:(إن أعمالكم تعرض على أقربائكم من موتاكم، فإن رأوا خيرًا فرحوا به، وإن رأوا شرًا كرهوه، وإنهم يستخبرون الميت إذا أتاهم من مات بعدهم، حتى إن الرجل ليسأل عن امرأته أتزوجت أم لا ؟ وحتى إن الرجل ليسأل عن الرجل، فإذا قيل له: قد مات، قالوا: هيهات ذهب فإن لم يحسوه عندهم، قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب به إلى أمه الهاوية). وروى ابن وهب، عن العطاف بن خالد، عن خالته، وكانت من العوابد، أنها كانت تأتي قبور الشهداء، قالت: صليت يومًا عند قبر حمزة بن عبد المطلب ﷺ ، فلما قمت، قلت: السلام عليكم، فسمعت أذناي رد السلام يخرج من تحت الأرض، أعرفه كما أعرف أن الله خلقني، وما في الوادي داعٍ ولا مجيب، فاقشعرت كُلُّ شعرة مني[2]. وعن عامر بن سعد: أنه كان إذا خرج إلى قبور الشهداء يقول لأصحابه:(ألا تسلمون على الشهداء فيردون عليكم) [3].

وهكذا فإن هناك من الأدلة المقنعة كالأحاديث الصحيحة والآثار الكثيرة والمرائي المتواترة ما يكفي في الدلالة على سماع الموتى سلام الأحياء وخطابهم، سواء قلنا: إن الله يرد عليهم أرواحهم حتى يسمعوا الخطاب ويردوا الجواب، أو قلنا: إن الأرواح أيضا تسمع وترد بعد فناء الأجسام؛ لأن هذا -كما ذكرنا- مبنيّ على ركيزتين: ثبوت سماع الموتى بالسنة الصحيحة، وأن القرآن لا يعارضها على التفسير الصحيح الذي تشهد له القرائن القرآنية، وإذا ثبت ذلك بالسنة الصحيحة من غير معارض من كتاب ولا سنة ظهر بذلك رجحانه على فهم عائشة رضي الله عنها ومن تبعها بعضَ آيات القرآن؛ إذ إن النص الصحيح عن النبي ﷺ مقدم على فَهْمِ من فَهِمَ من أصحابه وغيره، وليس في القرآن ما ينفي ثبوت السماع للموتى في الأحاديث الصحيحة.

---

[1] انظر الدر المنثور للسيوطي ٥٠١/٦ ، وشرح صحيح البخاري لابن بطال ٣٥٨/٣.

[2] انظر الاستذكار لابن عبد البر ١٨٥/١، وشرح صحيح البخاري لابن بطال ٣٦٠/٣.

[3] المصدر السابق.

وإذا رأيت هذه الأدلة الصحيحة الدالة على سماع الموتى فاعلم أن الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ وقوله سبحانه:﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ لا تخالفها، وذلك بموجب أن دلالة القرانن القرآنية عليه، وأن استقراء القرآن يدل عليه.

وممن جزم بأن الآيات المذكورة لا تنافي تلك الأحاديث الصحيحة شيخ الإسلام ابن تيمية؛ حيث صرح بأن الروح قد تعاد إلى البدن في غير وقت المسألة (أي سؤال الملكين) مستدلاً بقوله ﷺ:« ما من أحد مر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام»[1] وقوله عليه الصلاة والسلام:« إِنَّ أَفْضَلَ أَيَّامِكُمْ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ» قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرَمْتَ؟ يَعْنِي بَلِيتَ. قَالَ:« إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ»[2]، وهناك الكثير من الأحاديث والآثار التي تبين أن الأبدان التي في القبور تنعّم وتعذّب إذا شاء الله ذلك كما يشاء، وأن الأرواح باقية بعد مفارقة الأبدان ومنعّمة أو معذّبة، ولذا أمر النبي ﷺ بالسلام على الموتى،وكان يعلّم أصحابه كيفية السلام عليهم إذا زاروا القبور بأن يقولوا :« السَّلامُ عَلَيكم أهل الدِّيَارِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ...» مما يدل على أن الموتى يسمعون، ومن ثم فليس في قوله تعالى:﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ وقوله سبحانه:﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ حجة في دفع ما صحت به الآثار من قوله ﷺ لأصحابه عن قتلى بدر:« مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ» ولا في إنكار ما ثبت من قوله ﷺ عن الميت وسماعه كلام مشيّعيه:« إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ» إذا كانت الآيات تحتمل من التأويل وجها غير الذي تأوله من زعم أن الميت لا يسمع كلام الأحياء، وذلك كأن يكون المعنى: إنك لا تسمع الموتى بطاقتك وقدرتك، ولكن الله هو الذي يسمعهم، فنفى عن نبيه ﷺ أن يكون قادرًا على إسماع الموتى إلا بمشيئة الله تعالى، أو يكون المعنى: إنك لا تسمع الموتى إسماعاً ينتفعون به؛ لانقطاع الأعمال عنهم وانتقالهم من دار العمل والامتحان إلى دار

---

[1] أخرجه ابن عبد البر في الاستذكار ١/١٨٥، والبيهقي في الشعب ٧/١٧ رقم [٩٢٩٦].

[2] أخرجه في سننه أبو داود ١/٣٤٢ رقم [١٠٤٧]، والنسائي ٣/٩١ رقم [١٣٧٤] وصححه الألباني.

الحساب والجزاء، وبذلك ينتفي ما يوهم ظاهره التعارض بين قول الرسول ﷺ الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى وبين قول الله سبحانه وتعالى.

والله تعالى أعلم.

* * *

ورود المسلم النار

قال تعالى:﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾[١] وعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:« أتاني جبريل ﷺ فبشرني أنَّه من مات من أمَّتي لا يشرك بالله شيئاً دخلَ الجنَّة»[٢] فإن ظاهر هذا الحديث يوهم بالتعارض مع ظاهر الآية الكريمة، ومحله ورود الناس جميعا نار جهنم؛ لأن الخطاب في الآية عام في كل مؤمن وكافر.

بيد أنه يمكن الجمع أو التوفيق بينهما من عدة وجوه، وكلها تدور حول معنى (الورود) وما تحتمله في اللغة من دلالات[٣]:

<u>الأول</u>: أن الورود: الدخول، فإذا أريد الجنس كله فمعنى ورودهم هو دخولهم جميعاً فيها وهي خامدة، فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم، فعن جابر بن عبد الله ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال:«إذا دخل أهل الْجنَّة قَالَ بَعضهم لبَعض: أَلَيْسَ قد وعدنا رَبنَا أن نرد النَّار؟ فَيُقَال لَهُم: قد وردتموها وَهِي خامدة»[٤] وعنه أيضا أنه سئل عن هذه الآية فقال: سمعت رسول الله ﷺ يَقُولُ:« الْوُرُودُ الدُّخُولُ لاَ يَبْقَى بَرٌّ، وَلاَ فَاجِرٌ إِلاَّ دَخَلَهَا فَتَكُونُ

---

(١) سورة مريم ، الآية [٧١].

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١١٧٨/٣ رقم [٣٠٥٠]، ومسلم ٩٤/١ رقم [٩٤].

(٣) انظر الكشف والبيان للثعلبي٢٢٤/٦، ومعالم التنزيل٢٤٦/٥، ومدارك التنزيل٤٢/٣، والكشاف للزمخشري٣٦/٣، ومفاتيح الغيب٢٠٧/٢١، والنكت والعيون٣٨٤/٣، وغرائب القرآن للنيسابوري٥٠٠/١٦، والبحر المديد لابن عجيبة٢٤٠/٤، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي٨/٣، وأضواء البيان٤٨٠/٣، وشرح النووي على صحيح مسلم٥٨/١٦، والتيسير بشرح الجامع الصغير١٠٣١/١، وفيض القدير٣٠٣/٥، والتحرير والتنوير٦٩/١٦.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٢١٢/٧ رقم [٣٥٤٢٩] ، وابن المبارك في الزهد ص١٢٢ رقم [٤٠٧] ، والبيهقي في الشعب ٣٣٧/١ رقم [٣٧١] ، وابن عبد البر في التمهيد ٣٥٥/٦ ، قال الهيثمي في المجمع:" رواه الطبراني في الكبير وفيه يحيى بن يونس ولم أجد من ذكره، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح" ٣٢٩/٢ ، ولم أقف على رواية الطبراني، وقال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف:" غريب" ٣٣٢/٢.

عَلَى الْمُؤْمِنِ بَرْدًا وَسَلامًا كَمَا كَانَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ حَتَّى إِنَّ لِلنَّارِ أَوْ قَالَ لِجَهَنَّمَ ضَجِيجًا مِنْ بَرْدِهِمْ»[1] وفي رواية:« تَقُولُ النَّارُ يَوْمَ القِيامَةِ لِلْمُؤمِنِ جُزْ يا مؤمِنُ فَقَدْ أَطْفَأَ نُورُكَ لَهَبِي»[2].

وأما قول الله تعالى:﴿ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾[3] فالمراد عن عذابها.

ورجح هذا القول القرطبي؛حيث يقول:" وظاهر الورود الدخول لقوله عليه الصلاة والسلام:« فتمسه النار»[4]؛ لأن (المسيس) حقيقته في اللغة[5]: المماسة، إلا أنها تكون بردا وسلاما على المؤمنين وينجون منها سالمين، قال خالد بن معدان: إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا: ألم يقل ربنا: إنا نرد النار؟ فيقال: لقد وردتموها فألفيتموها رمادا" ثم أضاف قائلاً:" وهذا القول يجمع شتات الأقوال، فإن من وردها ولم تؤذه بلهبها وحرها فقد أبعد عنها ونجي منها، نجانا الله تعالى منها بفضله وكرمه وجعلنا ممن وردها فدخلها سالما وخرج منها غانما"[6] .

وقيل: الورود بمعنى الدخول، لكنه يختص بالكافرين وحدهم دون المؤمنين؛ لأن المراد من ضمير الغيبة (هم) في قوله سبحانه وتعالى:﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾[7] الكفار، فكنى عنهم أولاً كناية

---

[1] أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٣٥٥/٦، والبيهقي في الشعب ٣٣٦/١ رقم [٣٧٠] وقال: إسناده حسن.

[2] أخرجه الطبراني في الكبير ٢٥٨/٢٢ رقم [١٨٥٢٠] ، وضعفه الألباني، انظر السلسلة الضعيفة ٤١٣/٧ رقم [٣٤٣].وقال ابن الجوزي في التذكرة:" وأرجو أن يكون صحيحا" تذكرة الموضوعات ص٢٢٥ .

[3] سورة الأنبياء ، الآية [١٠١].

[4] أخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٢٨/٤ رقم [٢٦٣٢] ونصه:(لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم).

[5] انظر لسان العرب، مادة (م . س. س).

[6] الجامع لأحكام القرآن ٥٦٩/٦.

[7] سورة مريم ، الآية [٦٨].

الغيبة ثم خاطب خطاب المشافهة بقوله ﷻ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾، ولقراءة ابن عباس وعكرمة رضي الله عنهما: (وإن منهم) [1] أي: الكفرة.

ومما يدل على أن الورود في الآية معناه الدخول الخاص بالكفار هو ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما من أن جميع ما في القرآن من ورود النار غير تلك الآية محل النزاع معناه دخولها فدل ذلك على أن محل النزاع كذلك، وخير ما يفسر به القرآن القرآن[2]، فضلاً عن أن في نفس الآية قرينة دالة على ذلك، وهي أن الله تعالى لما خاطب جميع الناس بأنهم سيردون النار برهم وفاجرهم بقوله:﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ بيّن مصيرهم ومآلهم بعد ذلك الورود المذكور بقوله سبحانه:﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[3] أي نترك الظالمين الظالمين فيها، وهذا دليل على أن وردهم لها بمعنى دخولهم فيها، إذ إنهم لو لم يدخلوها ما كان ليقول: ﴿ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا ﴾، وقال ابن عباس:" ليردنها كل بر وفاجر، لكنها تمس الفاجر دون البر" وأضاف: وكان دعاء من مضى: اللهم أخرجني من النار سالماً ، وأدخلني الجنة غانما[4].

الثاني: أن المراد بورود جهنم: الجثو حولها، وقوله تعالى:﴿ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ دليل على أن المراد بالورود جثوهم حولها، وأن المؤمنين يفارقون الكفار بعد تجاثيهم، ويبقى الكافرون في مكانهم جاثين[5].

الثالث: أن المراد بالورود: الحضور وموافاة المكان ورؤيته، أو الدنو والقرب منه، أو الوصول إليه والإشراف عليه، فقد ذكر ابن عباس أنه قد يرد الشيءُ الشيءَ ولا

---

[1] انظر تفسير ابن كثير ٥/٢٥٣، والكشاف ٣/٣٦، والبحر المحيط ٦/١٩٧.

[2] ومن ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء الآية (٩٨):﴿ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ يعني: داخلين.

[3] سورة مريم ، الآية [٧٢].

[4] انظر تفسير ابن كثير ٥/٢٥٣، والنكت والعيون ٣/٣٨٥.

[5] انظر الكشاف ٣/٣٧.

يدخله[1]،كقوله تعالى:﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾[2] وقوله سبحانه:﴿ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ ﴾[3] والعرب تقول[4]: وردت القافلة البلد وإن لم تدخله، ولكن قربت منه، فهذا ورود مقاربة وإشراف وليس نفس الدخول؛ لقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾[5] فإبعادهم عنها في هذه الآية يدل على عدم دخولهم فيها، وإنما الوصول لها والنظر إليها والسرور بالنجاة منها، وعلى هذا فمعنى الآية أن الإنس والجن يحضرون حول جهنم وهو موضع المحاسبة، فقد ثبت بالأخبار أن المحاسبة تكون في الأرض أو حيث كانت الأرض، ويدل عليه قوله تعالى:﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾[6] وجهنم قريبة من الأرض، والجنة في السماء، ففي موضع المحاسبة يكون الحضور والاجتماع فيدخلون جميعاً من ذلك الموضع إلى جهنم، ثم يرفع الله تعالى أهل الجنة وينجيهم، ويدفع أهل النار فيها.

الرابع: أن المراد بالورود: الجواز على الصراط بالمرور على النار؛ لأنه ممدود عليها، وهو قول ابن مسعود والحسن وقتادة[7]، فقد روي عن ابن مسعود: (أن ورود النار المذكور في الآية هو المرور عليها؛ لأن الناس تمر على الصراط، وهو جسر منصوب على متن جهنم) وروي عن الحسن وقتادة نحو ذلك.

---

(1) انظر الكشاف ٣/٣٧.

(2) سورة القصص ، الآية [٢٣].

(3) سورة يوسف ، الآية [١٩].

(4) انظر لسان العرب لابن منظور، مادة (و.ر.د).

(5) سورة الأنبياء ، الآيتان [١٠١، ١٠٢].

(6) سورة إبراهيم ، الآية [٤٨].

(7) انظر جامع البيان ١٨/٢٣٢، ومعالم التنزيل ٥/٢٤٧.

الخامس: أن حظ المؤمنين من ورود النار هو حر الحمّى، أي مسها أجسادهم في دار الدنيا؛ وذلك لقوله ﷺ:«الْحمى حَظّ كل مُؤمن من النَّار»[1] وقوله ﷺ أيضاً:« الْحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ»[2]، وروي عن أبي هريرة ﷺ أن النَّبِيَّ ﷺ عَادَ مَرِيضًا مِنْ وَعَكٍ وأنا معه، قَالَ:« اصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ هِيَ نَارِي أُسَلِّطُهَا عَلَى عَبْدِيَ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا لِتَكُونَ حَظَّهُ مِنَ النَّارِ فِي الآخِرَةِ»[3] ولا شك أن الورود يحتمل تلك الدلالات جميعا، بيد أن الأول أصح وعليه أهل السنة، أي أن الخلق جميعا يدخلون النار ثم ينجي الله منها أهل الإيمان بدليل قوله تعالى:﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[4] فالمؤمنون يدخلون النار من غير خوف ولا ضرر ألبتة بل مع الغبطة والسرور؛ وذلك لأن الله تعالى أخبر عنهم أنهم ﴿ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ ﴾[5]، ولأن الآخرة دار الجزاء لا دار التكليف، وإيصال الغم والحزن إنما يجوز في دار التكليف.

وقد اختلف الفقهاء وأهل العلم حول كيفية دفع ضرر النار عن المؤمنين، وكانوا في ذلك على ثلاثة أقوال[6]:

أحدها: أن البقعة المسماة بجهنم لا يمتنع أن يكون في خلالها ما لا نار فيه، ويكون المؤمنون في تلك المواضع الخالية من النار على حين يكون الكفار في وسطها.

وثانيها: أن الله تعالى يخمد النار فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم من الكفار والمشركين، قال ابن عباس رضي الله عنهما:« يردونها كأنها إهالة»[7]، وقال كعب ﷺ:« يُجاء بجهنَّمَ يوم القيامة كأنَّها مَتْنُ إهالة، حتى إذا استوت عليها أقدام الخلائق نادى منادٍ:

---

[1] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١٦١/٧ رقم [٩٨٤٥] ، والقضاعي في مسند الشهاب ٧١/١ رقم [٤١] . قال الهيثمي في المجمع ٣٠٦/٢ :" وإسناده حسن" .

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ١١٩٠/٣ رقم [٣٠٨٨] ، ومسلم ١٧٣١/٤ رقم [٢٢٠٩].

[3] أخرجه ابن ماجه في سننه ١١٤٩/٢ رقم [٣٤٧٠]، وأحمد في مسنده ٤٤٠/٢ رقم [٩٦٧٤] وصححه الألباني.

[4] سورة مريم ، الآية [٧٢].

[5] سورة الأنبياء ، الآية [١٠٣].

[6] انظر مفاتيح الغيب ٢٠٧/٢١.

[7] انظر الكشاف ٣٦/٣، ومفاتيح الغيب ٢٠٨/٢١، وغريب القرآن للنيسابوري ٥٠١/١٦.

خُذي أصحابكِ ودَعي أصحابي، قال: فتَخْسِف بأولئك»[1]، وعن جابر بن عبد الله ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال:«إذا دخل أهل الْجنَّة قَالَ بَعضهم لبَعض: أَلَيس قَد وعدنا ربّنَا أَن نرد النَّار؟ فَيُقَال لَهُم: قد وردتموها وَهِي خامدة»

وثالثها: أن حرارة النار ليست بطبعها، فالأجزاء الملاصقة لأبدان الكفار يجعلها الله عليهم محرقة مؤذية، والأجزاء الملاصقة لأبدان المؤمنين يجعلها الله بردا وسلاما عليهم كما كانت على إبراهيم عليه السلام .

فإن قيل: ما الفائدة إذن من دخول المؤمنين النار ؟ فالجواب من عدة وجوه[2]:

الأول: أن ذلك مما يزيدهم سرورًا إذا علموا الخلاص منه.

الثاني: أن فيه مزيد غم على غم على أهل النار حيث يرون المؤمنين الذين هم أعداؤهم ينجون منها وهم يبقون فيها مع انكشاف أمرهم وظهور فضائحهم عند المؤمنين، وعند من كان يخوفهم من النار فما كانوا يلتفتون إليه.

الثالث: أن المؤمنين إذا كانوا معهم في النار يبكتونهم، فزاد ذلك غما للكفار وسرورًا للمؤمنين.

الرابع: أن المؤمنين كانوا يخوفونهم بالحشر والنشر ويقيمون عليهم الحجج والأدلة فما كانوا يقبلونها، فإذا دخلوا جهنم معهم أظهروا لهم أنهم كانوا صادقين فيما قالوا، وأن مَنْ استمعوا إليهم من المكذبين بالحشر والنشور كانوا كاذبين.

الخامس:أنهم إذا رأوا ذلك العذاب للكافرين كان سبباً لمزيد تمتعهم بنعيم الجنة.

ولما كان ورود المؤمنين النار لا يعني مطلقاً أن تكون دار خُلود لهم يعذبون فيها، وإنما من أجل جلب السرور لهم وإضفاء البهجة عليهم، والإحساس بفضل الله لنجاتهم منها فإنه لا تعارض إذن بين قول الرسول ﷺ وقوله سبحانه وتعالى.

والله تعالى أعلم.

* * *

---

[1] انظر مصنف ابن أبي شيبة ٥٥/٧ رقم [٣٤١٧٢] ، وشعب الإيمان للبيهقي ٣٣٨/١ رقم [٣٧٣] . والإهالة كل شيء من الأدهان مما يؤتدَم به مثل الزيت ودهن السمسم، وقيل:الإهالة ما أذيب من الألْيَة والشَّحم أيضا . قال أبو عبيد:" ومَتْنُ الإهالة ظَهْرُها إذا سُكِبَت في الإناء فإنما شبَّه كعب سكون جهنم قبل أن يصير الكفار في جوفها بذلك" غريب الحديث ٣٤٦/٤.

[2] انظر غرائب القرآن ٥٠٠/١٦.

حديث النفس بين المحاسبة والعفو عنه

قال تعالى:﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ ﴾ [1]، وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول ﷺ قال:« إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ بِهِ »[2]. وظاهر هذا الحديث يوهم بالتعارض مع قوله ﷻ في الآية السابقة، ومحل التعارض يكمن في قوله سبحانه:﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ ﴾ حيث يشمل حديث النفس والخواطر الفاسدة التي ترد على القلب ولا يستطيع دفعها، وعليه فإن المؤاخذة بها تجري مجرى تكليف الإنسان ما لا طاقة له به، والحديث ينفي المؤاخذة على حديث النفس والخواطر الفاسدة، ومن خلال كلام العلماء وفهم مرادهم وجدت عدم التعارض، وذلك من عدة وجوه[3]:

الوجه الأول: أن خواطر القلب على قسمين: أحدهما ما يوطن المرء نفسه عليه ويعزم على فعله وإظهاره إلى الوجود، فهذا مما يؤاخذ به ويحاسب عليه، والثاني ما يخطر بالبال ولا يمكن دفعه عن نفسه ولكن يكرهه ولا يعزم على فعله ولا إظهاره، فهذا

---

[1] سورة البقرة ، الآية [٢٨٤].

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ٢٤٥٤/٦ رقم [٦٢٨٧] ، ومسلم في صحيحه ١١٦/١ رقم [١٢٧] .

[3] انظر: معالم التنزيل ٣٥٤/١ ، والكشاف ٣٥٧/١ ، ومدارك التنزيل ٢١٧/١ ، والنكت والعيون ٣٦٠/١ ، ومفاتيح الغيب ١٠٩/٧، والبحر المحيط ٣٧٥/٢ ، وتفسير ابن عرفة ٨٠٠/٢ ، ولباب = = التأويل لعلاء الدين علي بن محمد الشهير بالخازن ٣٠٩/١ دار الفكر- بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، والتسهيل لعلوم التنزيل ٩٨/١ ، وبحر العلوم لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي٢١٢/١ تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر- بيروت، والجامع لأحكام القرآن ٥٧٨/٢ ، وشرح النووي على صحيح مسلم ١٤٩/٢ ، وشرح السيوطي لسنن النسائي ١٥٧/٦ تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب- سوريا ط٢ ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، وروح البيان لإسماعيل حقي ٤١٧/١ دار إحياء التراث العربي- بيروت، ومناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ١٨٨/٢، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات ، دار الفكر-بيروت ط١ ١٩٩٦م.

مما لا يؤاخذ به بدليل قول الله تعالى:﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [1] وقوله سبحانه:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[2] قال النسفي:"وجمهور العلماء على أن الحديث في الخطرة دون العزم، وأن المؤاخذة في العزم ثابتة"[3].

الوجه الثاني: أن كل ما كان في القلب مما لا يدخل في العمل فهو في محل العفو، والمراد من الآية الكريمة إخراج ما في القلب إلى حيز الوجود إما ظاهرا وإما على سبيل الخفية، وأما ما وجد في القلب من العزائم والإرادات ولم يتصل بالعمل فهو معفو عنه وغير محاسب عليه.

الوجه الثالث: أن معنى الآية هو أن الله ﷻ يحاسب خلقه على ما أبدوه من عمل أو أخفوه، ويعاقبهم عليه إلا أن معاقبته على ما أخفوه دون أن يعملوه إنما تكون بما يحدث لهم في الدنيا من الهم والغم والحزن والأذى والنوائب والمصائب، فإذا جاءت الآخرة لا يعاقبون على ذلك ولا يسألون عنه، وهو قول عائشة رضي الله عنها، فقد ورد أنها سألت النبي ﷺ عن هذه الآية فقال: «هذِهِ مُعَاتَبَةُ اللهِ لِعَبْدِهِ بِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الحُمَّى وَالنَّكْبَةِ حَتَّى الْبِضَاعَةِ يَضَعُهَا فِي كُمِّ قَمِيصِهِ فَيَفْقِدُهَا فَيَفْزَعُ لَهَا، حَتَّى إِنَّ الْعَبْدَ لَيَخْرُجُ مِنْ ذُنُوبِهِ كَمَا يَخْرُجُ التِّبْرُ الأَحْمَرُ[4] مِنَ الْكِيرِ»[5].

الوجه الرابع: أن المراد بالمحاسبة في الآية الكريمة الإخبار والتعريف، وأن معنى الآية يرجع إلى كونه تعالى عالماً بكل ما في الضمائر والسرائر، والمحاسبة هنا غير المؤاخذة، يدل على ذلك أن الله ﷻ قال:﴿ يُحَاسِبْكُم بِهِ ﴾ ولم يقل: (يؤاخذكم به) فقد

---

[1] سورة البقرة ، الآية [٢٢٥].

[2] سورة البقرة ، الآية [٢٨٦].

[3] مدارك التنزيل ٢١٧/١.

[4] التبر بالكسر: ما كان من الذهب غير مضروب، فإذا ضرب دنانير فهو عين. انظر لسان العرب، مادة (ت.ب.ر).

[5] انظر سنن الترمذي ٢٢١/٥ رقم [٢٩٩١] لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربي. قال الترمذي: حديث حسن غريب.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن الله تعالى إذا جمع الخلائق يُخْبِرهم بما كان في نفوسهم، فالمُؤْمِنُ يُخبِرهُ ويعفو عنه، وأهل الذُّنُوب يُخبرهم بما أخفوا من التَّكذيب والذَّنب، ويدعم قول ابن عباس حديث النبي ﷺ « إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فينادى على رؤوس الأشهاد: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]»[2].

الوجه الخامس: قوله تعالى بعد هذه الآية:﴿ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ ﴾ فيكون الغفران لمن كان كارها لورود تلك الخواطر، ويكون العذاب لمن كان مصرًا عليها ومستحسنا.

الوجه السادس: أن هذه الآية متصلة بالآية قبلها والتي نزلت في معنى الشهادة، حيث أخبر الله ﷻ أن الكاتم لها المخفي ما في نفسه محاسب، وهو اختيار ابن جرير[3].

الوجه السابع: أن تلك الآية نزلت في المؤمنين الذين يتولون الكافرين، والمعنى: وإن تظهروا ما في أنفسكم أيها المؤمنون من ولاية الكفار أو تخفوها يحاسبكم به الله، ويؤيده قوله تعالى:﴿ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ ﴾[4] يدل عليه ما قبله من قوله سبحانه:﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ﴾[5].

---

[1] سورة هود ، الآية [١٨].

[2] انظر الحديث في صحيح البخاري ١٧٢٥/٤ رقم [٤٤٠٨] ، وصحيح مسلم ٢١٢٠/٤ رقم [٢٧٦٨].

[3] انظر جامع البيان ١٠٢/٦ لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١ ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

[4] سورة آل عمران ، الآية [٢٩].

[5] سورة آل عمران ، الآية [٢٨].

الوجه الثامن: أن الآية فيما يطرأ على النفوس من الشك واليقين، وهو قول مجاهد[1].

الوجه التاسع: أن الآية منسوخة [2]بأخرى وهي قوله ﷻ:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾[3]؛ لأن تلك الآية تفيد أن الله ﷻ يكلف العباد حتى بالخطرات التي لا يمكن دفعها، والآية الناسخة تفيد أنه لا يكلفهم بها؛ لأنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، فعن أبي هريرة ﷺ قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين[4] من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا:﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، وأنزل الله ﷻ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ

---

[1] انظر تفسير مجاهد ص٣٥.

[2] انظر الناسخ والمنسوخ لأبي محمد علي بن أحمد الظاهري ص٣٠ تحقيق:د/عبد الغفار البنداري، دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٠٦هـ ، وقلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن لمرعي بن يوسف الكرمي ص٧٦ ، تحقيق: سامي عطا ، دار القرآن العظيم- الكويت ١٤٠٠هـ.

[3] سورة البقرة ، الآية [٢٨٦].

[4] اليهود والنصارى.

رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قال: نعم، ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ قال: نعم،﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ قال: نعم، ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ قال: نعم»[1] وهو ما رجحه ابن جزي، وأضاف قائلاً:" فإن قيل: إنّ الآية خبر، والأخبار لا يدخلها النسخ، فالجواب: أنّ النسخ إنما وقع في المؤاخذة والمحاسبة، وذلك حكم يصح دخول النسخ فيه، فلفظ الآية خبر، ومعناها حكم" [2]، وعليه فلا تعارض بين الحديث النبوي والآية الكريمة.

والله تعالى أعلم.

* * *

القول في مؤاخذة الإنسان بذنب غيره

قال تعالى:﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[3] وقال الرسول ﷺ:« إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»[4] وهذا الحديث يوهم ظاهره بالتعارض مع الآية الكريمة؛ إذ إن تعذيب الميت ببكاء أهله إنما هو أخذ للإنسان بجرم غيره، وهو خلاف ما ورد في هذه الآية.

والحق أنه ليس ثمة إشكال ولا معارضة بينهما، وبيان ذلك من عدة وجوه[5]:

---

(1) انظر الحديث في صحيح مسلم ١١٥/١ رقم [١٢٥] ، ومسند أحمد ٤١٢/٢ رقم [٩٣٣٣].

(2) التسهيل لعلوم التنزيل ٩٨/١.

(3) سورة الأنعام، الآية [١٦٤] ، والإسراء، الآية [١٥] ، وفاطر، الآية [١٨] ، والزمر، الآية [٧].

(4) أخرجه البخاري في صحيحه ٤٣٢/١ رقم [١٢٢٦] ، ومسلم ٦٤٠/٢ رقم [٩٢٨] .

(5) انظر مفاتيح الغيب ١٣٧/٢٠، والجامع لأحكام القرآن٢٥٩/٦، واللباب في علوم الكتاب٢٢٩/١٢، وشرح النووي على صحيح مسلم٢٢٨/٦، وإكمال المعلم شرح صحيح مسلم٢٠١/٣، وشرح سنن أبي داود للعيني٥٤/٦، وشرح صحيح البخاري لابن بطال٢٧٣/٣، والتمهيد لابن عبد البر٢٧٤/١٧، والاستذكار لابن عبد البر أيضا٧٠/٣، والمجموع شرح المهذب للنووي٣٠٨/٥، والحاوي في فقه الشافعي للماوردي٦٧/٣، والمغني لابن قدامة٤٠٩/٢، وخلاصة الأحكام للنووي١٠٥٩/٢، وفيض القدير٣٩٧/٢، ومختصر المزني ص٣٩، والموسوعة الفقهية الكويتية٥٥/٤٢، .

الأول: أن الحديث محمله كما ذهب جمهور الفقهاء على ما إذا كان البكاء مذموماً بأن اقترن بنوح أو ندب، وكان متسبباً عن وصيته، فقد كان من عادة العرب في الجاهلية الوصية به، وهو معصية وذنب، ومن ذلك قول طرفة بن العبد[1]:

إذا مُتُّ فانْعِينِي بما أنا أهْلُه وشُقِّي عَلَيَّ الجَيْبَ يا ابنةَ مَعْبَدِ

وقول لبيد[2]:

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسمُ السَّلامِ عَلَيْكُما وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرْ

فخرج الحديث مطلقاً على ما كان معتادا لهم، أما من بكى عليه أهله وناحوا عليه من غير وصية منه فلا يعذب؛ لقوله تعالى:﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾.

وهكذا فقد تأول الجمهور الحديث على أن من وصَّى بالبكاء عليه بندب ونياحة بعد موته، لا مجرد بكاء العين فهذا يعذب ببكاء أهله عليه ونوحهم؛ لأنه بسببه ومنسوب إليه، أما إذا كان البكاء والنوح من غير وصية فإنه لا يعذب.

فالحديث إذن محمول على من أوصى بالبكاء والنوح أو لم ينوص بتركهما، فمن أوصى بهما أو أهمل الوصية بتركهما يعذب بهما لتفريطه بإهمال الوصية وترك ما أمره الله به من قوله:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾[3] فأما من وصى بتركهما فلا يعذب بهما؛ إذ لا دخل له فيهما ولا تفريط منه، وحاصل هذا القول إيجاب الوصية بتركهما، ومن أهملها عُذِّب بهما، وهو حينئذ يعذب بذنب نفسه لا بذنب غيره.

الثاني: أن الحديث ينصب معناه على ما كانوا يفعلونه من النوح على الميت وندبه بتعديد شمائله ومحاسنه في زعمهم، وتلك الشمائل قبائح في الشرع يعذب بها، مثل قولهم: يا مؤيد النسوان، ومؤتم الولدان، ومخرب العمران، ومفرق الأخدان، ونحو ذلك مما يرونه شجاعة وفخرًا، وهو حرام شرعا.

الثالث: أن معنى الحديث هو أن الميت يعذب بسماعه بكاء أهله ويرق لهم، مثلما أننا نعذب أي نتألم ونتأذى ببكاء الأطفال، فسماع صوت البكاء هو نفس عذاب الميت أي

---

[1] انظر ديوانه ص٢٩ تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية- بيروت، ط٣ ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

[2] انظر ديوانه ص٥١ دار المعرفة – بيروت، ط١ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

[3] سورة التحريم، الآية [٦] .

تألمه بما يقع من أهله من البكاء والنياحة عليه، وصرح القاضي عياض بأنه أولى الأقوال[1]، واحتجوا بحديث فيه أن النبي ﷺ زجر امرأة عن البكاء على أبيها، وقال:« إن أحدكم إذا بكى استعبر له صويحبه، فيا عبد الله لا تعذبوا إخوانكم»[2].

الرابع: أن الحديث معناه أن الكافر أو غيره من أصحاب الذنوب يعذب في حال بكاء أهله عليه بذنبه لا ببكائهم.

الخامس: أن التعذيب خاص بالكافر دون المؤمن، وهو قول عائشة وابن عباس ﷺ .

السادس: أن السيدة عائشة رضي الله عنها أنكرت أن يكون النبي ﷺ قال ذلك، واحتجت بقوله تعالى:﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ وقالت: وإنما قال النبي ﷺ:« إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَزِيدُ الْكَافِرَ عَذَابًا بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»[3] وذكر في يهودية أنها تعذب وهم يبكون عليها، يعني تعذب بكفرها في حال بكاء أهلها لا بسبب البكاء.

والحق أنه لا وجه لإنكارها هذا الحديث؛ لأنه في الصحيحين، وفي الصحيحين[4] أيضا عن عمر بن الخطاب ﷺ أن النبي ﷺ قال:« إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ الْحَيِّ».

السابع: أن المراد بالميت المحتضر أو المشرف على الموت، والتعذيب أنه في حالة احتضاره والناس حوله يصرخون ويتفجعون يزيد كربه، وتشتد عليه سكرات الموت فيصير معذبا.

الثامن: أن المراد بالتعذيب توبيخ الملائكة له بما يندبه به أهله.

التاسع: أن العذاب لا يلزم أن يكون عقوبة، يدل على ذلك قوله ﷺ:« السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ»[5] والسفر ليس بعقوبة، لكن يتأذى به الإنسان ويتعب، وهكذا الميت إذا بكى أهله عليه فإنه يتألم ويتعب من ذلك، وإن كان هذا ليس بعقوبة من الله ﷻ له، وهذا التفسير للحديث تفسير واضح صريح، ولا يرد عليه إشكال، ولا يحتاج أن يقال: هذا فيمن أوصى

---

[1] انظر إكمال المعلم شرح صحيح مسلم ٢٠٢/٣.

[2] أخرجه الطبراني في الكبير ٧/٢٥ رقم [٢١١١٦] وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني ورجاله ثقات. المجمع ١٢/٦.

[3] أخرجه مسلم في صحيحه ٦٤١/٢ رقم [٩٢٩].

[4] انظر صحيح البخاري ٤٣٣/١ رقم [١٢٢٨] وصحيح مسلم ٦٣٨/٢ رقم [٩٢٧].

[5] انظر صحيح البخاري ٦٣٩/٢ رقم [١٧١٠] وصحيح مسلم ١٥٢٦/٣ رقم [١٩٢٧].

بالنياحة، أو فيمن كان عادة أهله النياحة ولم ينههم عنه عند موته، بل نقول: إن الإنسان يعذب بالشيء ولا يتضرر به.

والله تعالى أعلم.

* * *

القول في صنيع النبي ﷺ مع عبد الله بن أبي

قال تعالى:﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[1] وورد في الحديث ما صنعه النبي ﷺ مع عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق؛ حيث أخرج البخاري من حديث عمرو أنه سمع جَابِرًا ﷺ قَالَ:« أَتَى النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ، بَعْدَ مَا دُفِنَ فَأَخْرَجَهُ، فَنَفَثَ فِيهِ مِنْ رِيقِهِ، وَأَلْبَسَهُ قَمِيصَهُ»[2]، مما يوهم ظاهره التعارض مع الآية الكريمة.

ومحله مبني على كيفية جواز القول بأن الرسول ﷺ رغب في الصلاة عليه مع علمه أنه كافر، وقد مات على كفره، وأن صلاته ﷺ عليه تجري مجرى الإجلال والتعظيم له، وأيضا إذا صلى عليه فقد دعا له، وذلك محظور؛ لأن الله تعالى أعلمه أنه لا يغفر للكفار البتة، وكذلك دفع القميص إليه يوجب إعزازه.

ولعل الجواب عن ذلك[3]بما ينفي وجود ما يوهم ظاهره التعارض بين قوله سبحانه وفعل رسوله الكريم ﷺ أنه لما طلب من الرسول أن يرسل إليه قميصه الذي مسَّ جلده ليدفن فيه غلب على ظن الرسول ﷺ أنه انتقل إلي الإيمان؛ لأن ذلك الوقت وقت يتوب فيه الفاجر ويؤمن فيه الكافر، فلما رأي منه إظهار الإسلام وشاهد منه هذه الدالة على دخوله

---

[1] سورة التوبة، الآية [٨٤] .

[2] أخرجه البخاري في صحيحه١/٤٢٧ رقم [١٢١١]، ومسلم ٤/٢١٤٠ رقم [٢٧٧٣].

[3] انظر الكشاف٢/٢٨٣، ومدارك التنزيل٢/٢٠٠، ومفاتيح الغيب١٦/١٢١، وفتح الباري٣/١٣٩ ، ٨/٣٣٦، وتحفة الأحوذي٨/٣٩٦، وتفسير ابن كثير٤/١٩٢، ولباب التأويل٣/١٣١، وعون المعبود شرح سنن أبي داود لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي٨/٢٤٨ دار الكتب العلمية- بيروت، ط٢ ١٤١٥هـ ، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور لأبي الحسن برهان الدين البقاعي٣/٣٦٦ تحقيق:عبد الرازق المهدي، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

في الإسلام غلب على ظنه أنه صار مسلما فبني على هذا الظن ورغب في الصلاة عليه، فلما نزل جبريل عليه السلام وأخبره بأنه مات على كفره ونفاقه امتنع من الصلاة عليه، وبذلك تنفى هذا التعارض.

وأما دفع القميص إليه وتكفينه فيه ففيه عدة أوجه:

الأول: أن العباس عم النبي ﷺ لما أخذ أسيرا ببدر لم يجدوا له قميصا، وكان رجلا طويلا، فكساه عبد الله قميصه، وقد فعل رسول الله ﷺ معه ذلك مكافأة له على صنيع سبق له.

الثاني: أن المشركين قالوا له يوم الحديبية: إننا لا ننقاد لمحمد ولكننا ننقاد لك، فقال: لا إنَّ لي في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فشكر رسول الله ﷺ له ذلك.

الثالث: أن الرسول ﷺ ما سئل شيئا قط فقال لا، لأن الله تعالى أمره ألا يرد سائلا بقوله:﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾[1] فلما طلب القميص منه دفعه إليه عملاً بقوله سبحانه.

الرابع: لعل الله تعالى أوحى إلى الرسول ﷺ أنه إذا دفع قميصه إليه صار ذلك دافعاً لدخول ألف نفر من المنافقين في الإسلام ففعل ذلك لهذا الغرض، وقد قال عليه الصلاة والسلام: « إنَّ قميصِي لا يُغْنِي عنهُ مِنَ اللهِ شيئاً، ولعلَّ اللهَ أن يُدخلَ بِه ألفاً في الإسلام»[2] وروي أنه أسلم ألف من المنافقين لما رأوه يطلب التبرك بثوب النبي ﷺ.

الخامس: أن ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي كان من الصالحين، وأن الرسول ﷺ أراد إكرامه لمكان ابنه فقد كان صحابيا مسلما صالحا.

السادس: أن منع القميص لا يليق بذي الخلق العظيم وصاحب مكارم الأخلاق، فقد خاطبه الله تعالى بقوله:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[3] حيث قابل إيذاء المنافق له بالحسنى وألبسه قميصه كفنا.

---

[1] سورة الضحى، الآية [١٠] .

[2] لم أجده في كتب الحديث، ولكن ذكره ابن عطية في المحرر٣/٧٦، والقرطبي في الجامع٥/٢٤٢، وابن عادل في اللباب١٠/١٦٢، والرازي في مفاتيح الغيب١٦/١٢١، والخطيب الشربيني في السراج المنير١/٧٢٤ دار الكتب العلمية- بيروت. ولم أقف على صحته.

[3] سورة القلم، الآية [٤] .

السابع: أن الرحمة والرأفة كانت غالبة عليه، حيث قال تعالى:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [1] وقال:﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ ﴾ [2] فامتنع من الصلاة عليه رعاية لأمر الله تعالى، ودفع إليه القميص إظهارا للرحمة والرأفة.

الثامن: أنه يحتمل أن يكون النبي ﷺ قد فعل ذلك قبل نزول النهي الصريح عن الصلاة على أحد من المنافقين والقيام على قبره، وبهذا يندفع ما وقع في هذه القصة من إشكال أو تعارض بينها وبين الآية الكريمة، وقيل: إنما فعل النبي ﷺ مع عبد الله بن أبي ما فعل لكمال شفقته على من تعلق بطرف من الدين، ولتطييب قلب ولده عبد الله الرجل الصالح، ولتألف قومه من الخزرج لرياسته فيهم، فلو لم يجب سؤال ابنه وترك الصلاة عليه قبل ورود النهي الصريح لكان سُبَّة على ابنه وعارًا على قومه، فاستعمل أحسن الأمرين في السياسة إلى أن نهي فانتهي.

والله تعالى أعلم.

* * *

القول في المراد من السعي إلى الصلاة

قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[3] وقال الرسول ﷺ:« إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فَلاَ تَأْتُوهَا تَسْعَوْنَ وَائْتُوهَا تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»[4]. فإن ظاهر هذا الحديث يوهم التعارض مع الآية الكريمة، ومحله السعي للصلاة.

والحق أنه ليس ثمة تعارض بين الحديث الشريف والآية الكريمة، وذلك لأن السعي يتضح من استقراء دلالاته في لسان العرب[5]؛ إذ إن له عدة أوجه، منها:

---

[1] سورة الأنبياء، الآية [١٠٧] .

[2] سورة آل عمران، الآية [١٥٩] .

[3] سورة الجمعة، الآية [٩] .

[4] أخرجه البخاري في صحيحه ٣٠٨/١ رقم [٨٦٦] ، ومسلم ٤٢٠/١ رقم [٦٢٠].

[5] انظر لسان العرب، مادة (سعا).

الأول: العدو أو الجري والإسراع في المشي والاشتداد فيه[1]، وهو المنهي عنه في الحديث.

الثاني: العمل، وذلك كقول الله سبحانه :﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[2] أي:وعمل لها عملها[3]، وقوله ﷻ:﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[4]، وقوله:﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾[5] ، ومنه قول زُهير بن أبي سُلْمَى[6]:

سَعَى سَاعِيَا غَيْظِ بنِ مُرَّةَ بعدَما تَبَزَّلَ ما بَين العَشِيرَةِ بالدَّمِ

وهذا المعنى مما تحتمله الآية الكريمة، فقد ذهب الإمامان مالك والشافعي وكذلك الجمهور إلى أن المراد بالسعي في كتاب الله هو العمل، ومنه هذه الآية، فليس المراد من السعي الإسراع في المشي، وإنما المراد منه العمل أو الفعل، أي: فاعملوا على المضي إلى ذكر الله، واشتغلوا بأسبابه من الغسل والطهر والتوجه إليه.

ففي الفتح:" لما قابل الله بين الأمر بالسعي والنهي عن البيع دل على أن المراد بالسعي العمل الذي هو الطاعة لأنه هو الذي يقابل بسعى الدنيا كالبيع والصناعة"[7].

الثالث: المضي والذهاب أو المشي من غير إسراع، يقال: سعيت إلى كذا إذا ذهبت إليه، وكقولهم: نمو يسعى في البلاد يطلب فضل الله، ومنه قول الشاعر[8]:

أسْعَى عَلَى جدِّ بَنِي مَالِكٍ كُلُّ امرئٍ فِي شأنِهِ سَاعِ

وكان عمر بن الخطاب وابن عباس وابن مسعود وغيرهم يقرءون: (فامضوا إلى ذكر الله)[1]وعن عمر ﷺ أنه سمع رجلاً يقرأ:(فاسْعَوْا) فقال: من أقرأك هذا ؟ قال أبي بن

---

[1] انظر الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب العزيز لأبي عبد الله الحسين الدامغاني ٤١١/١ تحقيق: محمد حسن أبو العزم ، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

[2] سورة الإسراء، الآية [١٩] .

[3] انظر الوجوه والنظائر ٤١١/١ .

[4] سورة النجم، الآية [٣٩] .

[5] سورة الليل، الآية [٤] .

[6] انظر ديوانه ص١٠٥ دار الكتب العلمية– بيروت، ط١ ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

[7] فتح الباري لابن حجر ٣٩٠/٢ دار المعرفة – بيروت ١٣٧٩هـ.

[8] سماه أبو هلال العسكري في جمهرة الأمثال٣٨١/٢ (ابن الأسلت)، والبيت في كتاب الأغاني ١٢٠/١٧.

كعب، فقال: لا يزال يقرأ بالمنسوخ، لو كانت (فامْضَوْا) لسعيت حتى يسقط ردائي، وهذا المعنى تحتمله الآية أيضا، فيكون معنى ﴿ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ : فامضوا أو اذهبوا إليه واعملوا له.

الرابع: القصد والنية والجد، وهو ما تحتمله الآية الكريمة كذلك، فقد قال الحسن عندما سئل عن قوله تعالى:﴿ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾:" أما والله ما هو بالسَّعْي على الأقدام، ولقد نهوا أن يأتوا الصَّلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكن بالقلوب والنية والخشوع"[٢].

فالسعي في الآية إذن هو بالنية والإرادة والعمل، وليس الإسراع في المشي، كالسعي بين الصفا والمروة، وإنما هو بمعنى قوله تعالى:﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ فالقيام والوضوء وليس الثوب والمشي كله سعي، وعن قتادة في هذه الآية أن السعي أن تسعى بقلبك وعملك وهو المشي إليها[٣].

وفي هذه الآية لطيفة وهي أنه ينبغي على المؤمن أن يقوم إلى صلاة الجمعة بجد ونشاط وعزيمة وهمة، وليس المراد منه العدْو في المشي، فإن ذلك منهي عنه.

الخامس: إجابة الداعي للصلاة، وهو ما تحتمله الآية أيضا؛ إذ إن قوله تعالى: ﴿ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ جواب لقوله سبحانه:﴿ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ ﴾ فيكون معنى ﴿ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ هو: فأجيبوا دعوة الداعي إلى الصلاة.

ولذلك فإن الآية الكريمة تحتمل تلك الأوجه الأربعة الأخيرة جميعا، وكل منها لا يتنافى مع الحديث الشريف، وحاصله أن (السعي) المأمور به في الآية غير (السعي) المنهي عنه في الحديث الشريف؛ إذ إن المراد بالسعي في الآية المضي والذهاب، أو

---

[١] انظر النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٣٨/١ .

[٢] أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣٣٥٦/١٠، والثعلبي في الكشف والبيان ٣١١/٩.

[٣] أخرجه الطبري في الجامع في تفسير قول الله تعالى: ﴿ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ ٣٨٠/٢٣، والثعلبي في الكشف والبيان ٣١١/٩.

المشي بلا إسراع، أو القصد بجد دون عدْو، يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ﴾ أي: اشتغلوا بأمر المعاد واتركوا أمر المعاش، وعليه فإن معنى قوله تعالى: ﴿ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ هو: فامضوا أو اذهبوا أو امشوا دون جري أو عدْو، قال الفراء: المضي والسعي والذهاب في معنى واحد، أو أن معنى الآية هو: فاقصدوا واعمدوا إلى الخطبة والصلاة واهتموا في مسيركم إليها، فليس المراد بالسعي هنا المشي السريع، وإنما الاهتمام بها.

أما المراد من النهي عن السعي في الحديث فهو العدْو، أي: الجري، أو الإسراع، وذلك لمقابلته بالمشي حيث قال:« فَلاَ تَأْتُوهَا تَسْعَوْنَ وائْتُوهَا تَمْشُونَ» فلا تنافي إذن بين الحديث الشريف والآية الكريمة. والله تعالى أعلم.

القول في أسباب دخول الجنة

قال تعالى:﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1] وقال رسول الله ﷺ:« لن يُدخلَ أحدا عمله الجنة»[2].

فإن هذا الحديث يوهم ظاهره بالتعارض مع ظاهر الآية، بيد أنه يمكن التوفيق أو الجمع بينهما من عدة وجوه: [3]

الأول: أن يحمل الحديث على دخول الجنة والخلود فيها، وأن تحمل الآية على أن الجنة تنال المنازل فيها بالأعمال، فإن درجات الجنة متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال، والتقدير: ادخلوا منازل الجنة وقصورها بما كنتم تعملون، وليس المراد بذلك أصل الدخول؛ فإن نفس دخول الجنة بالرحمة، والتنعم والدرجات بقدر العمل.

---

[1] سورة الزخرف، الآية [٧٢] .

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢١٤٧ رقم [٥٣٤٩] واللفظ له ، ومسلم ٤/٢١٦٩ رقم [٢٨١٦].

[3] انظر تفسير ابن كثير٣/٤١٦، والكشاف٢/١٠١، واللباب٩/١٢١، ومفاتيح الغيب١٤/٦٨، والسراج المنير١/٣٧٧، والبحر المديد٧/٤٥، وفتح الباري١١/٢٩٥، وروح المعاني٨/١٢١، وأضواء البيان٧/١٤٦، والجامع لأحكام القرآن٤/٥٧٨، وروح البيان٣/١٦٠، والنسفي٢/٧٦.

الثاني: يجوز أن يكون الحديث مفسرًا للآية، والتقدير: ادخلوها بما كنتم تعملون مع رحمة الله لكم وتفضله عليكم؛ لأن نيل منازل الجنة برحمته، وكذا أصل دخول الجنة إنما هو برحمته أيضا؛ حيث ألهم العاملين ما نالوا به ذلك، ولا يخلو شيء من مجازاته لعباده من رحمته وفضله، وقد تفضل عليهم ابتداءً بخلقهم وإيجادهم ثم برزقهم وغير ذلك. فالحديث فسَّر ما أجمل في الآية، فإن رحمة الله وتوفيه للعمل وهدايته للطاعة وكل ذلك لم يستحقه بعمله، وإنما هو بفضل الله ورحمته، فلولا تلك الرحمة ما حصل الإيمان ولا الطاعة التي يحصل بها النجاة من عذاب الله وينال بها الجزاء وهو الفوز بالجنة.

الثالث: أن أعمال الطاعات كانت في زمن يسير والثواب لا ينفد، فالإنعام الذي لا ينفد في جزاء ما ينفد بالفضل لا بمقابلة الأعمال.

الرابع: أن منافع العبد لسيده فعمله مستحق لمولاه، فمهما أنعم عليه من الجزاء فهو من فضله.

الخامس: أن الباء في قوله:﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ للإلصاق أو المصاحبة، أي: أورثتموها ملابسة أو مصاحبة، وليست للسببية ولا المقابلة والمعاوضة، وإنما لم تقدر الباء هنا للسببية؛ لأنها تدل على أن الأعمال سبب الدخول المقتضية له كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها، ولم تقدر الباء أيضا للمقابلة أو المعاوضة؛ لأن العمل بمجرده ولو تناهى لا يوجب بمجرده دخول الجنة، ولا أن يكون عوضاً لها، فدخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد، ولولا رحمة الله لعبده لما أدخله الجنة، إذ إن جميع العمل لا يوازي نعمة واحدة فتبقى سائر نعمه مقتضية لشكرها وهو لم يوفها حق شكرها، فلو عذبه في هذه الحالة لعذبه وهو غير ظالم، وإذا رحمه كانت رحمته خيرا من عمله كما ورد في الحديث الشريف « إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ »[1].

السادس: أن يحمل الحديث على أن العمل من حيث هو عمل لا يستفيد به العامل دخول الجنة ما لم يكن مقبولا، وإذا كان كذلك فإن التوفيق للأعمال الصالحة والهداية للإخلاص فيها وقبولها إنما هو برحمة الله وفضله، أي أن العمل الصالح لن يناله المؤمن ولن يبلغه إلا برحمة الله وتوفيقه، وإذا كان العمل الصالح بسبب الرحمة كان دخول الجنة

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه ٦٣٧/٢ رقم [٤٦٩٩] ، وأحمد في مسنده ١٨٢/٥ رقم [٢١٦٢٩].

في الحقيقة برحمة الله، وجعلها الله تعالى ثواباً وجزاء لهم على تلك الأعمال الصالحة التي عملوها في الدنيا.

السابع: أن العمل لا يوجب دخول الجنة لذاته، وإنما يوجبه وعد الله العاملين أن يتفضل بها عليهم بمحض رحمته وكمال فضله وإحسانه، ولأنه سبحانه جعل العمل علامة على الدخول، وأيضا لما كان الموفق للعمل الصالح هو الله تعالى كان دخول الجنة في الحقيقة ليس إلا بفضل الله تعالى، ومن ثم سمَّى الجنة ميراثا، لأن الإيراث يدل على أنها فضل محض من الله تعالى وهبة أو عطية بدون قصد تعاوض ولا تعاقد وأنها لا تستحق ولا تنال بالعمل، يقول الحسن:" إنه يقال للعاملين يوم القيامة: جوزوا الصراط بعفوي، وادخلوا الجنة برحمتي، واقتسموها بأعمالكم"[1] وهي جنة الأعمال التي ينزل الناس فيها بأعمالهم، فمن كان أفضل من غيره في وجوه التفاضل كان له من الجنة أكثر، فما من عمل إلا وله جنة مخصوصة ونعيم خاص يناله من دخلها.

الثامن: أن الحديث خرج مخرج الحقيقة، والآية خرجت مخرج الشريعة، فالحقيقة تنفي العمل عن العبد وتثبته لله فكل شيء منه وإليه، والشريعة تنسبه له باعتبار الكسب، والدين كله وارد بين حقيقة وشريعة، فإذا شرع القرآن حققته السنة، وإذا شرعت السنة حققه القرآن.

وهكذا يمكن القول بأنه ليس هناك ثمة تعارض بين قول النبي الصادق المصدوق ﷺ الذي بلغ عن المولى ﷺ ولا ينطق عن الهوى وبين قول الله سبحانه، بل ثمة توافق بينهما وتأييد؛ لأن الحق تبارك وتعالى عندما شرع أوضح أن مَنْ يعمل العمل الصالح سيدخل الجنة، وهذا التشريع لم يجبر أحد الله عليه، بل هو الذي يهبه لنا منة وفضلا منه، فليس لأحد حق على الله؛ لأنه لا يوجد عمل يعود بفائدة عليه سبحانه، واتباع المنهج أو السعي وفق ما شرعه الله إنما يعود على العبد بالمنفعة والخير، فإن دخل الجنة فهذا أيضاً بفضل الله ورحمته.

والله تعالى أعلم

* * *

---

[1] انظر الأثر في: الكشاف ١/٤٤٥، والسراج المنير ١/٢٠١، والبحر المحيط ٣/٦٦.

أجل المرء بين الثبوت والامتداد

قال تعالى:﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [1]

وعن أنس بن مالك قال: سمعت رسول ﷺ يقول:« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي الأَجَلِ، وَيُبْسَطَ لَهُ فِي الرِّزْقِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[2] فإن ظاهر هذا الحديث يوهم التعارض مع الآية الكريمة، ومحله قوله ﷺ:« يُنْسَأَ لَهُ فِي الأَجَلِ» أي: يؤخر في أجله، أو يزيد في بقية عمره، والآجل مقدَّرة في علم الله ﷻ لا يزاد فيها ولا ينقص.

والجمع بينهما من عدة أوجه[3]:

الأول: أن هذه الزيادة كناية عن البركة في العمر والأوقات بسبب التوفيق للطاعات وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة، وصيانته عن تضييعه في غير ذلك، وحاصله أن صلة الرحم تكون سبباً للتوفيق للطاعة والصيانة فيبقى بعده ذكره الطيب وثناؤه الجميل مذكورًا على الألسنة فكأنه لم يمت، والعرب تقول: الثناء يضاهي الخلود، وقال سابق البربري[4]: (قد مات قوم وهم في الناس أحياء) يعنى بسوء أفعالهم وقبح ذكرهم[5].

ومن جملة ما يحصل له من التوفيق العلم الذي ينتفع به من بعده، والصدقة الجارية عليه، والخلف الصالح، قال رسول الله ﷺ:« إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةِ أَشْيَاءَ: مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَه»[6].

الثاني: أن الزيادة على حقيقتها، وذلك بالنسبة إلى علم الملك الموكل بالعمر، وأما الأول الذي دلت عليه الآية فبالنسبة إلى علم الله تعالى فهو على ما سبق به العلم إن

---

[1] سورة المنافقون، الآية [١١] .

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ٢/٧٢٨ رقم [١٩٦١] ، ومسلم ٤/١٩٨٢ رقم [٢٥٥٧] ، وهناد بن السري في الزهد٢/٤٩٠ رقم [١٠٠٦] واللفظ له.

[3] انظر إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للقاضي عياض ٨/١١، وفتح الباري ١٠/٤١٦، وشرح سنن أبي داود للعيني ٦/٤٥٢، وفيض القدير ٦/٣٣، وشرح صحيح البخاري لابن بطال ٦/٢٠٦، ٩/٢٠٤.

[4] سابق بن عبد الله البربري، أبو سعيد: شاعر، من الزهاد، له كلام في الحكمة والرقائق، وهو من موالي بني أمية، والبربري لقب له، ولم يكن من البربر، سكن الرقة، وكان يفد على عمر بن عبد العزيز فيستنشده عمر، فينشده من مواعظه. الأعلام للزركلي٣/٦٩.

[5] انظر شرح صحيح البخاري لابن بطال ٦/٢٠٦.

[6] أخرجه مسلم في صحيحه ٣/١٢٥٥ رقم [١٦٣١] ، والترمذي في سننه٣/٦٦٠ رقم [١٣٧٦].

وصل رحمه فأجله كذا، وإن لم يصل فكذا، كأن يقال للملك مثلا: إن عمر فلان مائة مثلا إن وصل رحمه، وستون إن قطعها، وقد سبق في علم الله ﷻ أنه يصل أو يقطع، فالذي في علم الله ثابت لا يتقدم ولا يتأخر، والذي في علم الملك هو الذي يمكن فيه الزيادة والنقص، ويقال له القضاء المعلق، وإليه أشار المولى سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[1] فالمحو والإثبات بالنسبة لما في علم الملك، وما في أم الكتاب أو اللوح المحفوظ هو الذي في علم الله تعالى، فلا محو فيه البتة، ويقال له: القضاء المبرم.

وبمعنى آخر: يجوز أن العبد يكتب وهو في بطن أمه أنه إن وصل رحمه فإن رزقه وأجله كذا، وإن لم يصل فكذا، بدلالة قوله تعالى في قصة نوح: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ . يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[2] يريد أجلا قد قضى به لكم إن أطعتم يؤخركم إليه؛ لأن أجل الله إذا جاء في حال معصيتكم لا يؤخر عنكم، فهذا كله من المكتوب في بطن أمه، فأي الأجلين استحق لا يؤخر عنه.

الثالث: أخرج الطبراني في الأوسط من حديث أبي الدرداء قال: ذكروا عند رسول الله ﷺ الأرحام، فقلنا: من وصل رحمه أنسيء في أجله، فقال: « إنه ليس يزاد في عمره، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[3] ولكنه الرجل تكون له الذرية الصالحة فيدعون له من بعده فيبلغه ذلك، فذاك الذي ينسأ في أجله»[4].

وللطبراني في الأوسط أيضا من حديث أبي الدرداء ﷺ قال: ذكر زيادة العمر عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: « لا تؤخر نفس إذا جاء أجلها، وإنما زيادة العمر الذرية الصالحة يرزقها الله العبد فتدعو له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره، فذلك زيادة

---

[1] سورة الرعد، الآية [٣٩] .

[2] سورة نوح، الآيتان [٣ ،٤] .

[3] سورة الأعراف، الآية [٣٤] .

[4] المعجم الأوسط ١٥/١ رقم [٣٤] وقال الهيثمي في المجمع: "رواه الطبراني في الصغير والأوسط وليس في إسناده متروك، ولكنهم ضعفوا" المجمع ١٥٣/٨.

العمر»[1] فزيادة العمر إذن ذرية صالحة يرزقها العبد يدعون له من بعد موته يلحقه دعاؤهم.

الرابع: أن المراد بزيادة العمر نفي الآفات عن صاحب البر في فهمه وعقله، وهو ما جزم به بعض العلماء، وقال بعضهم فيما هو أعم، وفي وجود البركة في رزقه وعلمه ونحو ذلك.

الخامس: أن المراد بالبسط والتأخير هنا البسط في الكيف لا في الكم، أو أن الخبر صدر في معرض الحديث على صلة الرحم بطريق المبالغة ، وبذلك فلا تناقي إذن بين الحديث والآية الكريمة . والله تعالى أعلم.

* * *

القول في سؤال أهل الكتاب

قال تعالى:﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾[2] وروي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول ﷺ:« لاَ تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا»[3].

وهذا الحديث يوهم ظاهره التعارض مع الآية الكريمة، ومحله أن الله ﷻ قد أمر بسؤال علماء أو أحبار أهل الكتاب، ليتأكد علم الشاكين بصحة القرآن وصدق نبوة محمد ﷺ؛ لأن أمر الرسول ﷺ مخبر عنه لديهم ومكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، على حين نهى النبي ﷺ عن سؤال أهل الكتاب في الحديث.

والحق أن المتأمل في معنى كل من الآية الكريمة والحديث النبوي الشريف يتحقق من أنه ليس ثمة تعارض بينهما، وبيان ذلك من عدة أوجه[4]:

---

(1) المعجم الأوسط ٣٤٣/٣ رقم [٣٣٤٩].

(2) سورة يونس، الآية [٩٤] .

(3) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ٣٥٤/٩ رقم [٩٧٨٠] وقال الهيثمي في المجمع:"رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون" مجمع الزوائد ١٩٢/١.

(4) انظر معالم التنزيل ١٥٠/٤، والكشاف ٣٥٢/٢، وتفسير ابن كثير ٢٦٩/٤، ومفاتيح الغيب١٢٨/١٧،والسراج المنير٣٢/٢، ولباب التأويل٢١٠/٣، وزاد المسير٦٣/٤، والبحر المحيط ١٩٠/٥، واللباب في علوم الكتاب ٤١٠/١٠، والمحرر الوجيز١٦٠/٣، وفتح القدير للشوكاني٤٧٣/٢، والتحرير والتنوير لابن عاشور١٧٦/١١، والبرهان في علوم القرآن٢٤٢/٢، وشرح صحيح البخاري لابن بطال٣٩٠/١٠، والموسوعة الفقهية الكويتية ٣٧/٤٠.

الأول: أن الخطاب للنبيّ ﷺ في الظاهر والمراد غيره من الشاكين فيه بدليل قوله في آخر السورة:﴿ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي ﴾[1] فالضمير للجمع، ومثله قوله سبحانه وتعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[2] ثم قال في تذييل الآية الثانية :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[3] ولم يقل: (بما تعمل)، وهذا قول الأكثرين.

الثاني: أن الخطاب في الآية الكريمة للشاكين في أمر الرسول ﷺ، ووحد الضمير في قوله: ﴿ فَإِن كُنتَ ﴾ وهو يريد الجمع؛ لأنه خطاب لجنس الإنسان كما في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾[4] حيث لم يرد في الآية إنسانا بعينه بل أراد الجمع، وعليه يكون معنى الآية التي نحن بصددها: إن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزل إليك من الهدى على لسان محمد ﷺ فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته وصدق رسالته؛ لأن ذلك مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل.

الثالث: أن المراد بسؤال أهل الكتاب أي من آمن منهم كابن سلام وكعب الأحبار إنما عن صفة النبي ﷺ المبشر به في كتبهم، ثم النظر فيما يوافق تلك الصفة لتأكيد العلم بصحة القرآن وصدق النبوة.

الرابع: أن الفائدة في إنزال هذه الآية على الرسول ﷺ هو تكثير الدلائل على نبوته وتقويتها مما يزيد في قوة اليقين وطمأنينة النفس وسكون الصدر[5]،كما أن المقصود بها استمالة قلوب الكفار وتقريبهم من قبول الإيمان وإزالة الحياء عنهم؛ وذلك لأنهم طالبوه مرة بعد أخرى بما يدل على صحة نبوته، وكأنهم استحيوا من تلك المطالبات والمعاودات، وذلك الاستحياء صار مانعاً لهم عن قبول الإيمان.

---

[1] سورة يونس، الآية [١٠٤] .

[2] سورة الأحزاب، الآية [١] .

[3] سورة الأحزاب، الآية [٢] .

[4] سورة الانفطار، الآية [٦] .

[5] ولهذا السبب أكثر الله تعالى في كتابه العزيز من تقرير دلائل التوحيد والنبوة.

الخامس: أن نهي الرسول ﷺ عن سؤال أهل الكتاب إنما هو في الشرائع والأحكام، أي: لا تسألوهم عن شرعهم فيما لا نعرفه من شرعنا لنعمل به؛ لأن شرعنا مكتف، وما لا نص فيه عندنا ففي النظر والاستدلال ما يقوم الشرع منع، فضلا عما عُهِدَ عنهم من الكذب والتضليل ومحاربة المولى ﷻ، قال أبو هريرة:" كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:« لاَ تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ،﴿ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾[1]»[2] وقال ابن عباس:" كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ أَحْدَثُ الأَخْبَارِ، تَقْرَءُونَهُ مَحْضًا لَمْ يُشَبْ، أَلَمْ يُخْبِرْكُمُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ أَنَّهُمْ حَرَّفُوا كِتَابَ اللَّهِ وَبَدَّلُوا وَكَتَبُوا كِتَابًا بِأَيْدِيهِمْ فَقَالُوا هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أَلاَ يَنْهَاكُمُ الْعِلْمُ الَّذِي جَاءَكُمْ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ ؟ وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا رَجُلاً مِنْهُمْ قَطُّ يَسْأَلُكُمْ عَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ؟"[3].

وهكذا فإن أمر الله تعالى بسؤال أهل الكتاب إنما كان بسبب التردد في الإيمان بمحمد ﷺ وصدق نبوته ورسالته والشك في صحة القرآن؛ لأن ذلك معلوم لديهم ومكتوب عندهم فيما أنزل على أنبيائهم من التوراة والإنجيل، ولذلك أمر ﷻ بسؤالهم عن صفة النبي المنتظر والمبشر به في كتبهم، وذلك للتيقن من صحة القرآن وصدق النبوة ودحض أي شك زائف أو شبهة باطلة.

أما نهي النبي ﷺ عن سؤالهم فإنما هو عما في شرعهم مما لا نعرفه من شرعنا لكي نعمل به؛ لأنهم بدلوا كتاب الله وحرفوه وكتبوه بأيديهم قائلين: هو من عند الله، فكيف إذن يجوز لنا سؤالهم مع تحريفهم كتاب الله وجحدهم النبوة ؟!.

إن ما لم يرد ذكره من أحكام الشرائع السابقة في الكتاب والسنة وورد في الكتب المنسوبة إلى الأنبياء السابقين كالتوراة والإنجيل لا يعد شرعاً لنا اتفاقا، ومن ثم كان

---

[1] سورة العنكبوت، الآية [٤٦] .

[2] أخرجه البخاري في صحيحه٤/١٦٣٠ رقم [٤٢١٥] ، والنسائي في سننه الكبرى ٦/٤٢٦ رقم [١١٣٨٧].

[3] أخرجه البخاري في صحيحه٢/٩٥٣ رقم [٢٥٣٩] ، والبيهقي في سننه الكبرى ٨/٢٤٩ رقم [١٦٩٠٤].

النهي عن سؤال أهل الكتاب عنه، وبذلك انتفى ما يوهم ظاهره التعارض بين الآية الكريمة والحديث النبوي الشريف.

والله تعالى أعلم.

* * *

القول في أفضلية الأمم

قال الله تعالى:﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [1]، وقال الرسول ﷺ :« أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ» فَقُلْنَا: مَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ:« نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الأَرْضِ، وَسُمِّيْتُ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ لِي التُّرَابُ طَهُورًا، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الأُمَمِ »[2].

وظاهر هذا الحديث يوهم التعارض أو المخالفة مع قوله ﷻ في الآية الكريمة، وهذا التعارض كما يبدو يتمثل في تفضيل الحديث لأمة محمد ﷺ ، على حين كان التفضيل في القرآن لبني إسرائيل على العالمين.

بيد أن المتأمل في معنى الحديث النبوي والآية الكريمة يجد أنه لا تعارض مطلقا بين قول الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى وبين قول الله ﷻ، وذلك من عدة وجوه[3]:

الوجه الأول:أن المراد بالعالمين في الآية الجمع الكثير من الناس وليس كل الناس؛ لأن سيدنا محمد ﷺ أفضل الخلق قاطبة.

---

(1) سورة البقرة ، الآية [٤٧].

(2) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٩٨/١ رقم [٧٦٣] و ١٥٨/١ رقم [١٣٦١] ، والبيهقي في السن الكبرى ٢١٣/١ رقم [٩٦٥] ، وابن أبي شيبة في المصنف ٣٠٤/٦ رقم [٣١٦٤٧]. والحديث إسناده حسن كما قال شعيب الأرنؤوط .

(3) انظر تفسير القرآن العظيم لأبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم ١٠٤/١ تحقيق: أسعد الطيب، المكتبة العصرية- صيدا -بيروت، ومعالم التنزيل ٩٠/١ ، وتفسير ابن كثير ٢٥٥/١ ، ومفاتيح الغيب ٤٩/٣ ، والبحر المحيط ٣٤٦/١ ، والإحكام في أصول الأحكام لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم ١٦٥/٢ دار الحديث- القاهرة، ط١ ١٤٠٤هـ ، واللباب في علوم الكتاب لأبي حفص عمر بن علي بن عادل ٥٣٦/١ تحقيق: الشيخ عادل عبد الموجود وغيره، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١= = ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، وأضواء البيان ١٩٧/٧ ، وتفسير ابن عرفة ٤١٢/١ تحقيق:د/ حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية- تونس ١٩٨٦.

الوجه الثاني: أن التفضيل المذكور في بني إسرائيل إنما كان على عالمي زمانهم، وفي حال عدم وجود أمة محمد ﷺ في عالم ذلك الزمان، والمعدوم ليس بشيء حتى يفضل أو يفضل عليه، فلا يلزم من كون بني إسرائيل أفضل العالمين في ذلك الوقت كونهم أفضل من محمد ﷺ وأمته، والدليل على ذلك أن الله تعالى بيَّن أن أمة محمد ﷺ خير وأكرم على الله من بني إسرائيل، وذلك في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾(1).

الوجه الثالث: أن التفضيل في الآية الكريمة عام في العالمين ، لكنه مطلق في الفضل، والمطلق يكفي في صدقه صورة واحدة، فالآية تدل على أن بني إسرائيل إنما كان تفضيلهم على العالمين في أمر ما لم يكن لغيرهم وهو النبوة المتكررة والملك، وهذا لا يقتضي أن يكونوا أفضل من كل العالمين في جميع الأمور، بل لعلهم وإن كانوا أفضل من غيرهم في أمر واحد، فغيرهم يكون أفضل منهم فيما عدا ذلك الأمر.

الوجه الرابع: أن التفضيل المراد في الآية يحتمل الاستثناء، والمعنى: أني فضلتكم على العالمين إلا أمة محمد ﷺ الذين هم خير أمة أخرجت للناس، فالتفضيل ليس على عمومه؛ لأن الملائكة أفضل منهم بيقين. ومن ثم فإنه لا تعارض إذن بين الآية الكريمة والحديث الشريف. والله تعالى أعلم.

* * *

القول في أيّ النساء أفضل

قال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(2)، وقال الرسول ﷺ:« فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ(3) عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»(4).

(1) سورة آل عمران ، الآية [١١٠].

(2) سورة آل عمران ، الآية [٤٢].

(3) ثَرَدَ الخُبْزَ: فَتَّه ثم بَلَّه بمَرَقٍ ثمَّ شَرَّفَه وَسْطَ القَصعةِ . وهو الثَّريدُ . انظر تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي مادة (ثرد) وفتح الباري لابن حجر ٥٥١/٩.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه ١٣٧٥/٣ رقم [٣٥٥٩] و مسلم ١٨٩٥/٤ رقم [٢٤٤٦].

وظاهر هذا الحديث يوهم التعارض مع الآية الكريمة؛ فإن قوله سبحانه عن مريم : ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يدل ظاهره على تفضيلها على جميع نساء الدنيا .

بيد أن المتأمل في معنى كل من الآية والحديث يتبين له أنه ليس ثمة تعارض بينهما؛ لأن قوله تعالى:﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يعني نساء أهل الدنيا في عالمي زمانها، أما قول النبي ﷺ:« فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ» فيعني نساء الدنيا كلها، والدليل على ذلك تفضيل الله أمة الإسلام على جميع الأمم في قوله ﷻ:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[1] وقوله:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[2] والوسط: العدل عند أهل التأويل، فدل هذا كله على أن من شهد له النبي ﷺ بالفضل من أمته أفضل ممن شُهِدَ له بالفضل من الأمم الخالية، ويدعم ذلك قوله ﷻ:﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾[3] فدل عموم هذا اللفظ على فضل أزواجه على من كُنَّ قبلهن وبعدهن، وأجمعت الأمة على أن نبينا محمد ﷺ أفضل من جميع الأنبياء، فكذلك نساؤه لهن من الفضل على سائر نساء الدنيا ما للنبي ﷺ على سائر الأنبياء، وقد صح أن نساءه معه في الجنة، ومريم مع ابنها، وابنها في الجنة، ودرجة محمد ﷺ في الجنة فوق درجة هؤلاء كلهم.

وهكذا فإن معنى قوله ﷻ:﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ هو أنه تعالى اصطفاها على نساء العالمين في زمانها بما خصها به من كرامته كالتحرير في المسجد

---

[1] سورة آل عمران ، الآية [١١٠].

[2] سورة البقرة ، الآية [١٤٣].

[3] سورة الأحزاب ، الآية [٣٢].

فلم يحرر غيرها، وولادة عيسى عليه السلام من غير أب، وخدمة البيت، وهذا قول الأكثرين[1] ، ومن ثم فلا تعارض بين الآية الكريمة والحديث الشريف.

والله تعالى أعلم.

* * *

الريح والرياح بين الرحمة والعذاب:

قال الله تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[2] وقال الرسول ﷺ:« الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﷻ تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ فَلاَ تَسُبُّوهَا، وَاسْأَلُوا اللَّهَ ﷻ خَيْرَهَا، وَاسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا»[3]، مما يوهم ظاهره التعارض مع الآية الكريمة، وهذا مبني على ما استقر في الأذهان من أقوال العلماء والمفسرين من أن ثمة فرقاً في الدلالة بين (الريح) بصيغة المفرد و(الرياح) بصيغة الجمع، فالرياح للرحمة والريح للعذاب، وهو قول ابن عباس، وروي عنه أيضا أنه قال:« مَا هبت ريح قطّ إلاّ جثا النَّبِي ﷺ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رَحْمَةً وَلا تجعلها عذابا ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رياحًا وَلاَ تجعلها ريحًا»[4] قال ابن عباس: في كتاب الله ﷻ :﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾[1]

---

[1] انظر جامع البيان للطبري ٣٩٣/٦، والكشف والبيان ٦٧/٣ ، ومعالم التنزيل للبغوي ٣٦/٢، والكشاف للزمخشري ٣٨٩/١، والنكت والعيون للماوردي ٣٩٢/١، ومعاني القرآن للنحاس ٣٩٨/١ ، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى- مكة المكرمة، ط١ ١٤٠٩هـ، ولباب التأويل للخازن ٣٤٦/١، ومفاتيح الغيب للرازي ٣٨/٨، وزاد المسير لابن الجوزي ٣٨٧/١ المكتب الإسلامي- بيروت، ط٣ ١٤٠٤هـ، وأحكام القرآن لأبي بكر أحمد بن علي الجصاص ٢٩٣/٢ تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ١٤٠٥هـ ، والبحر المحيط لأبي حيان ٤٧٦/٢، وشرح صحيح البخاري لابن بطال ٤٨٥/٩ ، وفتح الباري لابن حجر ٤٧٠/٦.

[2] سورة الأعراف، الآية [٥٧] .

[3] أخرجه أبو داود في سننه٧٤٧/٢ رقم [٥٠٩٧] ، وأحمد في مسنده٢٦٧/٢ رقم [٧٦١٩] ، وصححه الألباني.

[4] أخرجه الشافعي في مسنده ٨١/١ رقم [٣٦١].

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا ﴾[2] وقال:﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾[3] وقال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ ﴾[4].

والحق أنه لا تعارض مطلقاً بين الآية الكريمة والحديث النبوي الشريف، وذلك لوجهين[5]:

الأول: أن في قراءة الجمهور ما يدل على أن (الريح) قد تطلق على الخير والرحمة أيضا، فقد قرئ[6] (الرياح): (الريح) في بعض الآيات في سياق الرحمة دون العذاب، أي أنها تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، وهو ما يتفق مع حديث الرسول الكريم ﷺ فالريح من روائح الله تعلى، أي من الأشياء التي تأتي بالرحمة لمن أراد الله رحمته، وتأتي بالعذاب لمن أراد الله هلاكه.

ويدعم ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا عصفت الريح قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ»[7].

الثاني: أن ما قيل: إن الرياح للخير والرحمة والريح للعذاب في القرآن الكريم إنما هو غالب لا مطرد. والله تعالى أعلم.

* * *

---

(1) سورة الذاريات، الآية [٤١] .

(2) سورة القمر، الآية [١٩] .

(3) سورة الحجر، الآية [٢٢] .

(4) سورة الروم، الآية [٤٦] .

(5) انظر أحكام القرآن للشافعي ٩٩/١، ومعالم التنزيل٣٧٦/٤، وشرح السنة للبغوي ٣٩٣/٤، وفيض القدير ٦٠/٤، ولباب التأويل٦٣/٤، واللباب لابن عادل٤٤٧/١١،والدر المنثور للسيوطي٣٣٩/١، وروح المعاني للألوسي٣٢/٢ و٥١/٢١، والتحرير والتنوير١٦٦/٢٥ .

(6) انظر حجة القراءات لأبي زرعة عبد الرحمن بن زنجلة ص٣٨٢ تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط٢ ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، والتيسير في القراءات السبع لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني ص٦٣، دار الكتاب العربي- بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(7) أخرجه مسلم في صحيحه ٦١٦/٢ رقم [٨٩٩].

القول في عصمة الله ﷻ لرسوله ﷺ من الناس

قال تعالى:﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[1] وروي أنه عليه الصلاة والسلام شج وجهه يوم أحد، وكسرت رَبَاعيته اليمنى السفلى، وجرحت وجنتاه، وشفته السفلى من باطنها، وهشمت البَيْضَة[2] في رأسه، وجُحِشَت[3] ركبته ﷺ [4]، مما يوهم ظاهره التعارض لتعارض مع الآية الكريمة، والحق أنه لا تعارض بينهما، وبيان ذلك من عدة وجوه [5]:

الأول: أن المراد العصمة من القتل والأسر، وقد حفظه الله ﷻ من ذلك، وفي خطابه سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ وعد وضمان لعصمته من المخاوف وتشجيع له في التبليغ، وتنبيه على أنه يجب عليه أن يحتمل كل ما دون النفس من أنواع المحن والبلاء وأذى الكفار، فذلك مما كان يجري على سائر الأنبياء، فما أشد تكليفهم عليهم الصلاة والسلام لنيل جزيل الأجر، وليُعْلَم أنهم بشر تصيبهم محن الدنيا فلا يفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات.

الثاني: أن الآية الكريمة نزلت بعد ما شج رأسه يوم أحد؛ لأن سورة المائدة من أواخر ما نزل من القرآن.

---

[1] سورة المائدة ، الآية [٦٧].

[2] البيضة: الخوذة.

[3] جُحِش إذا تقشّر جلده. انظر مقاييس اللغة لابن فارس مادة (جحش) .

[4] انظر صحيح البخاري ١٠٦٣/٣ رقم [٢٧٤٧] ، والسيرة النبوية لابن كثير ٢٧/٣ طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- وزارة الأوقاف- مصر ط٢ ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م ، والسيرة الحلبية لعلي بن برهان الدين الحلبي ٥٤٨/٢ دار المعرفة – بيروت.

[5] انظر معالم التنزيل ٧٩/٣ ، وتفسير ابن كثير ١٥١/٣، ومدارك التنزيل ٤٢٢/١، والكشف والبيان ٩٣/٤، واللباب لابن عادل ٤٤٠/٧، والتسهيل ١٨٣/١، والبحر المحيط ٥٤٠/٣، وزاد المسير ٣٩٧/٢، ومفاتيح الغيب ٤٢/١٢، ومناهل العرفان للزرقاني ٢٦٨/٢، والبحر المديد لابن عجيبة ١٩٨/٢ ، والمحرر الوجيز ٢١٨/٢ ، والجواهر الحسان الثعالبي ٤٧٦/١ مؤسسة الأعلمي= = للمطبوعات- بيروت، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٣٤٨/٢ دار الفكر-بيروت، والبرهان في علوم القرآن للزركشي ٦٦/٢، وفيض القدير للمناوي١٦١/٥، وشرح صحيح البخاري لابن بطال ٣٥٧/٥، وتحفة الأحوذي للمباركفوري ٣٢٦/٨، وتفسير مقاتل بن سليمان٣١٢/١، وروح المعاني ١٩٩/٦.

الثالث: أن معنى ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ ﴾ أي: يخصك بالعصمة من بين الناس؛ لأنه كان نبي الوقت والنبي معصوم، وفي ذلك دليل على صحة نبوته؛ إذ لا يمكن أن يكون إخباره بذلك إلا من عند الله تعالى، وكذا جميع ما أخبر به.

والله تعالى أعلم.

* * *

خاتمة البحث ونتائجه

القرآن الكريم والسنة الصحيحة كلاهما وحي من عند الله ﷻ ، فقد قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ فكيف إذن يجوز القول بأن ثمة تعارضاً بينهما، وقد أكدت دراسة تلك المواضع التي يوهم ظاهرها التعارض ذلك، وذاك هو البيان:

* إخبار النبي ﷺ أن الأموات يسمعون كلام الأحياء وجزمه بذلك لا يخالف قوله تعالى في خطابه له ﷺ :﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ وقوله سبحانه:﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ وذلك بموجب دلالة القرائن القرآنية.

* أن المراد بورود النار دخول الخلق جميعاً فيها، ثم ينجي الله المؤمنين منها بدليل قوله تعالى:﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ فالمؤمنون يدخلون النار من غير خوف ولا ضرر ألبتة، بل مع الغبطة والسرور.

* حديث النفس والخواطر الفاسدة التي ترد على القلب ولا يستطيع دفعها لا يؤاخذ عليها الإنسان، والآية الواردة بهذا الشأن منسوخة على أرجح الأقوال بآية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ .

* الإنسان لا يؤاخذ بذنب غيره، والحديث الدال على أن الميت يعذب بسماعه بكاء أهله عليه لا يلزم أن يكون المراد بالعذاب عقوبة، بدليل قوله ﷺ:« السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنْ الْعَذَابِ» والسفر ليس بعقوبة، ولكن يتأذى به الإنسان ويتعب، وهكذا الميت إذا بكى أهله عليه فإنه يتألم ويتعب من ذلك، وإن كان هذا ليس بعقوبة من الله تعالى له.

* صنيع الرسول ﷺ مع ابن سلول كان قبل نزول النهي الصريح عن الصلاة على أحد من المنافقين والقيام على قبره، وبهذا يندفع ما وقع في هذه القصة من إشكال أو تعارض بينها وبين الآية الكريمة.

* أن (السعي) إلى الصلاة المأمور به في الآية الكريمة غير (السعي) المنهي عنه في الحديث؛ إذ إن المراد بالسعي في الآية المضي والذهاب، أو المشي بلا إسراع بدليل

قوله تعالى:﴿ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾ أي: اشتغلوا بأمر المعاد واتركوا أمر المعاش، وعليه فإن معنى قوله تعالى:﴿ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ هو فاهتموا وامضوا أو اذهبوا أو امشوا دون دري أو عدو.

أما المراد بالسعي المنهي عنه في الحديث فهو الإسراع أو الجري؛ وذلك لمقابلته بالمشي في قوله:« وائْتُوهَا تَمْشُونَ » فذلك نهى عنه الرسول ﷺ فلا تنافي إذن بين الحديث والآية الكريمة.

* العمل لا يوجب دخول الجنة لذاته، وإنما يوجبه وعد الله العاملين بالتفضل بها عليهم بمحض رحمته وكمال فضله وإحسانه؛ إذ إنه وحده هو الموفق للعمل الصالح، ومن ثم كان دخول الجنة في الحقيقة ليس إلا بفضل الله تعالى؛ ولذلك سمى الجنة ميراثا، مما يدل على أنها فضل محض من الله تعالى وهبة أو عطية.

* الآجال في علم الله تعالى ثابتة ومحددة، والزيادة إنما تكون في علم الملك الموكل بالأعمار، أو أنها كناية عن البركة في الأوقات والتوفيق للطاعات بما ينفع في الآخرة، أو المراد بها الذرية الصالحة التي تدعو للإنسان بعد وفاته، أو نفي الآفات والأمراض عنه، أو أنها إنما تكون في الكيف لا في الكم، أو أنها صدرت في معرض الحديث عن صلة الرحم بطريق المبالغة.

* أمر الله تعالى بسؤال أهل الكتاب إنما كان بسبب التردد في الإيمان بالرسول ﷺ والشك في صدق النبوة وصحة القرآن، أما نهي النبي ﷺ عن سؤالهم فإنما هو عما في شرعهم مما لا نعرفه من شرعنا لكي نعمل به؛ لأنهم بدلوا كتاب الله وحرفوا وكتبوه بأيديهم قائلين: هو من عند الله.

* تفضيل بني إسرائيل إنما كان على عالمي زمانهم، وفي حال عدم وجود أمة محمد ﷺ في عالم ذلك الزمان، أما أمة محمد ﷺ فهم خير أمة أخرجت للناس، فالتفضيل ليس على عمومه.

* اصطفاء الله تعالى السيدة مريم على نساء العالمين إنما يعني نساء أهل الدنيا في عالمي زمانها، أما تفضيل النبي ﷺ السيدة عائشة رضي الله عنها فإنما يعنى نساء الدنيا كلها، بدليل تفضيل الله تعالى أمة الإسلام على جميع الأمم بدليل قوله ﷻ:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ

أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ فدل هذا على أن من شهد له النبي ﷺ بالفضل من أمته أفضل ممن شُهِدَ له بالفضل من الأمم الخالية.

* (الريح) لا تطلق على العذاب فحسب، وإنما تطلق على الخير والرحمة أيضا مثل (الرياح)، وقد قرئ (الرياح): (الريح) في بعض الآيات في سياق الرحمة دون العذاب، أي: أنها تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، وهو ما يتفق ما حديث الرسول ﷺ فالريح من روائح الله تعالى، أي: من الأشياء التي تأتي بالرحمة لمن أراد الله رحمته، وتأتي بالعذاب لمن أراد تعذيبه وإهلاكه.

* المراد بعصمة الله تعالى لنبيه ﷺ من الناس هو حفظه من القتل والأسر، وقد كان ذلك، وفي خطابه له ﷺ وعد وضمان لحفظه من المخاوف وتشجيع له في تبليغ الرسالة، وتنبيه له على وجوب احتمال كل من دون النفس من أنواع المحن والبلاء وأذى الكفار،فذلك مما كان يحدث لسائر الأنبياء.

ثبت بأهم المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .

١- أحكام القرآن لأبي بكر أحمد بن علي الجصاص، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ١٤٠٥هـ .

٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لمحمد بن محمد العمادي أبو السعود دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر – بيروت ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين بن عبد الله بن عمر البيضاوي، دار الفكر- بيروت.

٥- بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر- بيروت.

٦- البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان، تحقيق الشيخ أحمد عبد المقصود وآخرين ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١ ١٤٢٢هـ

٧- البحر المديد لأبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط٢ ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .

٨- البرهان في علوم القرآن لأبي عبد الله محمد بن بهادر الزركشي ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة – بيروت ، ١٣٩١هـ.

٩- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي، مؤسسة التاريخ العربي – بيروت ، ط١ ١٤٢٠هـ /٢٠٠٠م .

١٠- تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي، لمحمد بن عبد الرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية- بيروت.

١١- التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي، دار الفكر – بيروت.

١٢- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، تحقيق سامي محمد سلامة دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط٢ ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .

١٣- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر يوسف بن عبد البر، وزارة الأوقاف – المغرب، ١٣٨٧هـ.

١٤- التيسير بشرح الجامع الصغير لزين الدين عبد الرؤوف المناوي، مكتبة الإمام الشافعي - الرياض ط٣ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٥- التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، دار الكتاب العربي- بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

١٦- جامع البيان في تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ١٤٢٠هـ /٢٠٠٠م .

١٧- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي الأنصاري، تحقيق: إبراهيم محمد الجمل، دار القلم للتراث القاهرة .

١٨- الجواهر الحسان في تفسير القرآن لعبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت .

١٩- حجة القراءات لأبي زرعة عبد الرحمن بن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط٢ ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٢٠- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط٢ ١٤٠٢هـ/١٩٨١م.

٢١- الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٢٢- روح البيان لإسماعيل حقي، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

٢٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لأبي الفضل محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي - بيروت .

٢٤- روضة الطالبين وعمدة المفتين لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية- بيروت.

٢٥- زاد المسير في علم التفسير لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي - بيروت ، ط٣ ١٤٠٤هـ .

٢٦- السراج المنير لشمس الدين محمد بن أحمد الشربيني، دار الكتب العلمية- بيروت.

٢٧- سنن أبي داود سليمان بن الأشعث، تحقيق: محمد محيي الدين، دار الفكر- بيروت.
٢٨- سنن ابن ماجه لأبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر – بيروت .
٢٩- سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيس الترمذي، تحقيق:/ أحمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٣٠- السنن الكبرى لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، مجلس دائرة المعارف النظامية- حيدر آباد – الهند، ط١ ١٣٤٤هـ.
٢٨- شرح السنة للحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي – دمشق ـ بيروت ط٢ ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
٢٩- شرح صحيح البخاري لأبي الحسن علي بن خلف بن بطال، تحقيق: ياسر إبراهيم، مكتبة الرشد - الرياض – السعودية ط٢ ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م
٣٠- شرح صحيح مسلم، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٢ ١٣٩٢هـ.
٣١- شرح المعلقات السبع لأبي عبد الله الحسين بن أحمد، طبعة الحلبي- مصر.
٣٢- صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د/مصطفى البغا، دار ابن كثير- اليمامة- بيروت.
٣٣- صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٣٤- عون المعبود شرح سنن أبي داود لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط٢ ١٤١٥هـ.
٣٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة- بيروت ١٣٧٩هـ.
٣٦- فيض القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية- مصر، ط١ ١٣٥٦هـ.
٣٧- قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن لمرعي بن يوسف الكرمي، تحقيق: سامي عطا، دار القرآن العظيم- الكويت ١٤٠٠هـ.

٣٨- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل لأبي القاسم محمود ابن عمر الإمام الزمخشري ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط١ ١٤١٥هـ ١٩٩٥م .

٣٩- الكشف والبيان لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي تحقيق أبي محمد بن عاشور ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ط١ ١٤٢٢هـ /٢٠٠٢م .

٤٠- لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين علي بن إبراهيم الشهير بالخازن ، دار الفكر بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م

٤١- اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص عمر بن علي بن عادل، تحقيق: عادل عبد الموجود وغيره، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١ ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٤٢- مدارك التنزيل لأبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي، تحقيق: مروان الشعار، دار النفائس- بيروت، ٢٠٠٥م.

٤٣- معارج القبول شرح سلم الوصول إلى علم الأصول للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي، تحقيق:عمر بن محمود، دار القيم- الدمام، ط١ ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

٤٤- معالم التنزيل لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ، تحقيق محمد عبد الله النمر وغيره ، دار طيبة للنشر والتوزيع ط٤ ١٤١٧هـ /١٩٩٧م .

٤٥- المعجم الأوسط لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق عوض الله، دار الحرمين- القاهرة ١٤١٥هـ.

٤٦- المعجم الكبير لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق:حمدي عبد المجيد، مكتبة العلوم والحكم- الموصل- العراق، ط٢ ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

٤٧- مفاتيح الغيب لفخر الدين محمد بن عمر الرازي الشافعي ، دار الكتب العلمية - بيروت ط١ ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م .

٤٨- الناسخ والمنسوخ لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري، تحقيق: د عبد الغفار البنداري، دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٠٦ه.

٤٩- النكت والعيون لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، تحقيق: السيد عبد الرحيم، دار الكتب العلمية- بيروت.